اقدم النصوص المسيحية

•

سلسلة النصوص النسكية

٢

حياة القديسة ماكرينا

للقديس غريغوريوس النيصي



منشورات المكتبة البولسية

الطبعة الأولى
٢٠٠١

•

منشورات المكتبة البولسية
جونيه شارع القدّيس بولس - ص ب ١٢٥
هاتف ٩١١٥٦١ - ٠٩/٩٣٣٠٥٢ - فاكس: ٠٩/٩١٨٤٤٧
بيروت - شارع لبنان - هاتف ٠١/٤٤٨٨٠٦
زحلة - الحمراء بلازا - هاتف ٠٨/٨١٢٨٠٧

بالتعاون مع

A. T. I. M. E.
رابطة الكليات والمعاهد اللاهوتية في الشرق الأوسط

المنتسبة إلى



مجلس كنائس الشرق الأوسط

المركز الرئيسي
ص. ب. ٥٣٧٦ بيروت - لبنان
هاتف: ٧٤٢٠٨٨ - ٣٥٣٩٣٨
تلكس: 22662 OIK LE

مكتب الاتصال
P. O. Box 4259 Limassol. Cyprus
فاكس: 344894
تلفاكس: 324496 - 05

اقدم النصوص المسيحية

●

سلسلة النّصوص النّسكيّة

٢

حياة القدّيسة ماكرينا

للقدّيس غريغوريوس النيصّي



تعريب

الأب حنّا الفاخوري

منشورات المكتبة البولسيّة

صورة الغلاف:

العذارى القدّيسات (جزءٌ من فسيفساء براڤينّا)

غريغوريوس النيصّي (٣٣٥ - ٣٩٤؟)

أوّلاً : حياته

ليس في ما كتبه غريغوريوس وما كتبه معاصروه، ومؤرّخوه ما يُطلعنا بدقّة على مراحل حياته، وإنّما هنالك إشارات وتلميحات نلتقطها في بحثنا، كما نلتقط ما توحي به المقارنات والمقاربات، وما لم يُفصح به غريغوريوس إفصاحًا تامًّا. وقد عرفنا أنه من سُلالة كريمة. وممّا لا شكّ فيه أنّ هنالك شخصين كان لهما أثر عميق في نفس غريغوريوس، وفي توجيه حياته، هما شقيقته ماكرينا، وشقيقه باسيليوس الذي كثيرًا ما دعاه في مؤلّفاته «أبًا ومعلّمًا». وممّا لا شك فيه أيضاً أنه فقد أباه في حداثته وأن باسيليوس، أخاه البكر، قد تولّى أمره، ولكنّنا لا نعرف ما كان الفرق بينهما في السنّ، ولا هل تبع دروس أخيه عندما كان يُعلّم في قيصريّة كبّادوكيّة سنة ٣٥٦. والذي يبدو من آثاره أنه كان ضليعًا من أساليب البلاغة، وذا إلمام واسع بالفلسفة وبشتّى علوم عصره من مثل العلوم الطّبيعيّة، والهيئة، والطبّ، مع أنّه لم يبلغنا أنّه تردّد على مدارس قيصريّة والقسطنطينيّة وأثينة كأخيه باسيليوس وكصديقهما النزينزيّ.

وُلد غريغوريوس ما بين ٣٣٥ و ٣٤٠ في قيصريّة كبّادوكيّة، وما إن

شبّ حتّى مال إلى الخدمة الكنسيّة وصار شمّاساً قارئًا، وعبثًا حاول باسيليوس أن يشدّه إلى آنّسي، فيكون له عونًا في حياة الجماعة الرُّهبانيّة؛ وعندما أُلغي قرار يوليانس المدرسيّ سنة ٣٦٥ عاد غريغوريوس إلى مهنة الكلمة البليغة، وفي بحثه عن «البتوليّة» أشار إلى أنّه أصبح غير مؤهّل لأن يشترك في ثمار التبتّل، وقد استدلّوا بذلك على أنّه تزوّج، وقيل إنه اقترن بفتاة اسمها ثيوسابية ظلّ وفيًّا لها سحابة حياته، وانّها توفّيت سنة ٣٨٥ فوجّه إليه غريغوريوس النّزينزيّ رسالة تعزية.

عندما قُسِّم إقليم كبّادوكية سنة ٣٧٢ عمد باسيليوس إلى تدعيم جماعة النّيقويّين بزيادة الكراسي الأسقفيّة، وجنّد للدفاع عن العقيدة جماعة من ذوي العقول الثاقبة والإيمان الصُّلب، ودعا أخاه غريغوريوس إلى أُسقفيّة نيصُّس، فقبل الدّعوة على مضض، إلاّ أنّ سنِي أسقفيّته السّبع الأولى كانت حافلة بالصّعوبات، وقد كتب إليه باسيليوس يأخذ عليه سذاجته في موضوع السياسة الكنسيّة والعلاقات العامّة (الرسالتان ٥٨ و ١٠٠). ويعدُّهُ مفتقرًا إلى الخبرة؛ وهذا ما ألّب عليه الأريوسيّين فاتّهموه بتبذير أموال الكنيسة وبأنّ رسامته الأسقفيّة لم تكن شرعيّة، وفي مجمع دعا إليه حاكم البنطس أُسقط من كرسيّه ونُفِي، ولبث في منفاه إلى أن مات فالنس وضعفت حدّة الأريوسيّة، فعَاد إلى كرسيه في آخر سنة ٣٧٨، واستُقبِل بكلّ حفاوة.

في سنة ٣٧٩ توفّي باسيليوس فكان على غريغوريوس أن يقوم بجميع مهامّ أخيه الرّهبانيّة واللاهوتيّة والكنسيّة، فتألّق نجمه، وانقلبت

حاله من ضعف إلى قوّة، وظهر سياسيًّا كنسيًّا يُطلب لكلّ كبيرة وصغيرة، وخطيبًا مُفوَّهًا، ولاهوتيًّا خبيرًا حاذقًا في قضايا العصر العقائديّة، وواعظاً مسموع الكلمة، استطاع، إلى آخر حياته، أن يُقيم علاقات وثيقة مع العاصمة، القسطنطينيّة، ومع البلاط الإمبراطوري. وقد اختير لتأبين الأميرة بولخاريا ثم الإمبراطورة فلاسيلاّ.

في مجمع أنطاكية (أيلول - تشرين الأوّل ٣٧٩) الذي اشترك فيه، عُهد إليه في أن يزور كنائس البنطس وأرمينية؛ وفي هذه الأثناء اختير متروبوليتًا لسيبسطية فاضُطّر أن يُقيم في تلك المدينة ردحًا من الزمن إلى أن انتَدبَ لها أخاه بطرس أسقفًا أصيلاً. وفي مجمع القسطنطينيّة (أيار - تموز ٣٨١) لفت الأنظار بخطابه اللاهوتيّ العقائديّ البليغ، وكان منذُ ذلك الحين في عداد الأساقفة الذي يُعدُّون أركان الأرثوذكسيّة الصحيحة. وقد طلب إليه المجمع أن يتوجّه إلى بلاد العرب للتوفيق بين أُسقفَيْنِ يتنازعان كرسيّ بُصرى، ولمعالجة بعض البِدَع المتفشيّة هناك. وفي طريق عودته إلى أبرشيّته توقّف في أورشليم وزار الأماكن المقدّسة، وكان في نيصُّس نحو أواخر سنة ٣٨١.

وفي سينودس القسطنطينيّة المُنعقد سنة ٣٨٣ ألقى خطابه الشهير عن «ألوهة الابن والروح القدس». وقد ورد اسمه في لائحة المشتركين في سينودس القسطنطينيّة ٣٩٤، وفي أواخر أيّامه انقطع إلى وضع القواعد الروحيّة للحياة الرُّهبانيّة التي نظّمها أخوه باسيليوس، وتوارى ظلّه إلى أن توفّي سنة ٣٩٤.

ثانيًا: أعماله

لغريغوريوس النيصّي آثارٌ كثيرة ومتنوّعة ظهرَ فيها رجلَ ثقافةٍ فلسفيّةٍ وعلميّةٍ واسعة، ورجلَ عقلٍ متوهّجٍ، فكان من ألمع اللاهوتيّين، كما كان من أسمى النفوس روحانيّة، ومن أعمقِ الناظرين في الحياة الصُّوفيّة والنُّسكيّة، وقد يكون أثقب نظرًا من باسيليوس ومن غريغوريوس النّزينزيّ في الحقلين الفلسفيّ واللاهوتيّ، وله الفضل الكبير في معالجة اللاهوت بنظرة فلسفيّة، كما كان له تقدير عظيم جدًّا في البلاط الامبراطوريّ لبلاغته التي نهج فيها المنهج الذي شاع في السُّفسطائيّة الثانية، سُفسطائيّة هيماريوس وليبيانيوس، وإن لم يَتمشَّ ونفسيّتَهُ كخطيب.

لأفلاطون وأفلوطين والرواقيّين أثرٌ ملموس في كتابة غريغوريوس، وقد عمل على نقل الفلسفة القديمة من مستواها الوثنيّ إلى المستوى المسيحيّ. ومع الروحانيّ تمكّن من وضعِ أُسُسِ التصوُّف المسيحيّ، وهكذا تنصّرت الفلسفة الإغريقيّة، واكتسبت امتدادًا جديدًا وروحًا جديدة، كما اكتسب التصوّف المسيحيّ عمقًا قامت على أساسه الحياة الرُّهبانيّة والنُّسكيّة في فورة انتشارها وأفق امتدادها.

وإنّه لمن الصعب جدًّا تحديد تاريخ آثار غريغوريوس النيصيّ كما كان من الصعب اللحاق به في شتّى مراحل حياته، ولكن أكثر المؤرّخين يرون أن معظم آثاره ظهر بعد وفاة باسيليوس (٣٧٩)، وهم يختلفون في نظرتهم إلى أسلوبه الكتابيّ، فمنهم من ذهب إلى أن أسلوبه ثقيل ومعقّد، ومنهم من رفعه إلى أعلى مستوى ولمس فيه روعة الثقافة

القديمة في تناغم عباراتها وتساوق موسيقى ألفاظها. وعلى كلّ حال فغريغوريوس شاعر وفيلسوف وصوفيّ. وهو كما قيل «شاعر أفكار».

١. الأعمال العقائديّة

أ) **ضدّ أفنوميوس** أربعة كُتب فنّد فيها غريغوريوس آراء أفنوميوس، ففي الثلاثة الأولى دحض ما جاء في كتابه «دفاعٌ أبعدُ من الدفاع» ودافع عن باسيليوس وأسقطَ حججَ الأريوسيّة؛ وفي الرابع فنّد ما جاء في «الاعتراف الإيمانيّ» الذي قدّمه أفنوميوس لثيودوسيوس في مجمع القسطنطينيّة الذي عُقِد سنة ٣٨٣.

ب) ثلاثة كتب **هاجم فيها الأبوليناريوسيّين**، وكرّر فيها أنّ ما لم يتّخذه الكلمة لم يفتدِهِ (يعني الطبيعة الإنسانيّة الكاملة).

ج) **كتاب التعليم الكبير**

من بعد «مبادئ» أوريجانس يُعدّ هذا الكتاب أوّل محاولة لاهوتيّة شموليّة. إنّه خلاصة العقيدة المسيحيّة، ويُعتقد أنه ظهر نحو سنة ٣٨٦، اعتمد فيه غريغوريوس أيضاً على الماورائيّات، ولم يقتصر على مُعطيات الكتاب المقدّس؛ فقدّم «للرؤساء الكنسيّين» نموذجًا في بسط أهمّ العقائد المسيحيّة والدفاع عنها لدى الهراطقة واليهود والوثنيّين. فهذا البناء التّعليمي والدفاعيّ والقائم أيضاً على الحجّة العقليّة، لا يتقبّل نظريّات أوريجانس بطريقة عشوائيّة، وإن اعتمد عليها بعض الاعتماد. إنّه ينحو نحوًا واقعيًّا في موضوع قيامة الأجساد، متّبعًا في ذلك رأي مثوديوس الشهيد خصم أوريجانس.

يعالج غريغوريوس في القسم الأوّل وحدانيّة الله في ثلاثة أقانيم؛ وفي القسم الثاني الخطيئة، والتجسّد، والفداء؛ وفي القسم الثالث المعموديّة والإفخارستيّا.

د) الحوار مع ماكرينا

كانت ماكرينا على شفا الموت (حوالي كانون الأوّل **٣٧٩** أو في أوائل كانون الثاني ٣٨٠)، وقد جعل غريغوريوس على لسانها آراءه في النّفس، والموت، والخلود، والقيامة...

وفي ما بقي من آثار غريغوريوس العقائديّة نراه، في أربع رسائل، يدافع عن عقيدة الثالوث، ويبيّن العلاقة بين الأقانيم الثلاثة، وفي أنّ الثلاثة واحد في الجوهر. أمّا الرسالة **١٨٩** فهي منسوبة خطأً إلى باسيليوس، وفيها يُظهر غريغوريوس ألوهة الروح القدس. وهنالك حوار مع فيلسوف وثنيّ ينقض فيه غريغوريوس مذهب الجبريّة الفلكيّة.

٢. الأعمال التفسيريّة والوعظيّة

أ) لغريغوريوس مؤلّفان مهمّان في **تاريخ الخليقة: خلق الإنسان، وتفسير الأيّام الستّة** الدفاعيّ، وضع الأوّل منها وقدّمه لأخيه بطرس بداعي الفصح، وأتمّ فيه **الأيّام الستّة** لباسيليوس، وقد نهج فيه، على غير عادتِه، نهج باسيليوس متقيّدًا بالمعنى الحرفي، ومبتعدًا عن التفسير المجازي والرّمزي الذي شاع في سائر أعماله التفسيريّة.

بـ) ثماني مواعظ في **سفر الجامعة** يدعو فيها غريغوريوس النّفس إلى التعالي فوق الحواسّ، وإلى الزُّهد بجمالِ الدّنيا، وإلى العبادة الصامتة للقدرة الإلهيّة في هيكل النفس؛ وخمس عشرة موعظة في **نشيد الأناشيد**؛ يرى فيها الواعظُ قصّةَ اتحاد النفس بالله في زواج سرّيّ؛ وهو يُحلّق تحليقًا رائعَ البيان، بنفس يغمرها الحبُّ الإلهيّ، موضحًا انطلاق النفس النشوى بحبّ الله، في تصعيدها غير المحدود إلى الله غاية وجودها. **وعدّة مواعظ في المزامير** يبيّن غريغوريوس أوّلاً هدفَ المزامير ونظامها، ثم يفسّرها تفسيرًا رمزيًّا؛ والمزامير في نظره خمسةُ كُتُب تُمثّل الدرجات الخمسَ في سُلَّم الكمال، ولعناوينها معان روحيّة يبرزها في تقوى وورع. وخمس مواعظ في **الصلاة الربيّة**؛ وثماني مواعظ في **التّطويبات** يسعى غريغوريوس إلى أن يكتشف فيها ثماني درجات في سلّم الكمال التي تقود إلى المشاهدة السعيدة. أمّا الصلاةُ الربيّة فهو يُقدّم لها بكلام على ضرورة الصلاة، ثم يفسّر طلباتها تَفسيرًا أخلاقيًّا في غالب الأحيان؛ وموعظتان في **رسالة بولس الأولى إلى الكورنثيّين.** وإننا سنتوقّف قليلاً عند أشهر عمل تفسيريّ لغريغوريوس هو حياة موسى.

جـ) حياة موسى

• تاريخ وضع الكتاب

وضعَ غريغوريوس هذا الكتاب نحو سنة **٣٩٢** عن طلب أحد الرُّهبان، وكان قد تقدّم في السنّ، يدلُّ على ذلك شيبُ شعره الذي يشير إليه، والحسدُ الذي تعرَّض لسهامِه وتحدّث عنه بمرارةٍ،

والصّراعات المسيحانيّة التي نشِبت في أواخر حياته وتركت أصداءً واسعةً في الكتاب، وهذا النّضج الكامِلُ في التعليم الروحيّ الذي تسيطر عليه فكرة الكمال في كونه نموًّا متواصلاً.

• مضمون الكتاب

في الكتاب قسمانِ، قسمٌ تناولَ فيه المؤلّف خلاصةَ الأحداث التي رافقت حياة موسى مُستندًا فيها إلى رواية سِفْرَي الخروج والعدَد، وناهجًا نهجَ باسيليوس وفيلونَ اليهوديّ، أي مُعتمدًا حرفيّةَ التاريخ في تفسيره، وراميًا أبدًا إلى استخراج المعاني الأخلاقيّة التي تفيد وتَبني، وكأنّ حياةَ موسى سيرةُ أحدُ القدّيسين. وغريغوريوس يُضخِّم الأحداثَ بعض التّضخيم لإبراز الفائدة الأخلاقيّة، ويشدّد على الظّاهرات العجائبيّة من مثل العلّيقة المُلتهبة، ويُندّد بالتفسيرات الطبيعيّة التي تُقصي الجانب الخارق، كتفسير تكاثُر الضفادع بالتكاثر الطبيعيّ لا بأمر من موسى؛ ويُسقط الجزئيّات الشائنة أو يُضمّنها معاني لائقةً، كاستيلاء العبرانيّينَ على أموال المصريّين. وهكذا فالقسمُ الأوّل من الكتاب تفسيرٌ حرفيّ يحمل على التقَوى.

أمّا القسم الثاني ففيه جوهرُ الكتاب حيث تصبح حياةُ موسى صورةً للترقّي في مَدارج الكمال، ومثالاً للنفس في مسيرتها الصّوفيّة. وقد نهج غريغوريوس في هذا القسم نهجَ فيلون في التفسير الروحيّ، وأضاف إلى طريقة فيلون طريقة التفسير الرمزي لِسفر الخروج كما نرى بعضاً من ذلك في العهد الجديد ولا سيّما رسائل القدّيس بولس؛

فأحداث سِفر الخروج فيها لم تعُدْ صورًا لحقائق روحيّة وحسبُ، ولكنّها تصبح صورًا لحقيقة تاريخيّة وروحيّة هي المسيح والنظام الجديد الذي أقامه. وهكذا فأهمّ الأحداث في سفر الخروج مذكورة في الإنجيل ومطبّقة على المسيح، من مثل الحيّة النُّحاسيّة، والمنّ، والحملِ الفِصحيّ، والعمودِ النّير؛ وهذه الطريقة الرمزيّة فاشية في كتابة بولس، والأمثلة كثيرةٌ نقتصَر منها على قولَه: «لا أريد أن تجهلوا، أيّها الاخوة، أنّ آباءكم كُلّهم كانوا تحت الغمام، وكلّهم جازوا في البحر، وكلّهم اعتمدوا في موسى في الغمام وفي البحر، وكلّهم أكلوا الطعام الروحيّ نفسه، وكلّهم شربوا الشراب الروحيّ نفسه؛ فإنّهم كانوا يشربون من صخرة روحيّة تتبعُهم، وهذه الصخرة كانت المسيح... ولقد جرتْ هذه الأمورُ ليكون لنا فيها عبرةٌ» (١ كور ١٠: ١ – ٦).

وممّا لا شكّ فيه أنّ أوريجانُس سبق غريغوريوس إلى هذا النوع من التفسير، ولكنّ غريغوريوس لم يُغرق في التفصيل والتأويل كما فعل سابقوهُ، فاكتفى بالبارز من الأحداث، وجعله سلّمًا إلى قمّة الكمال.

• الكمالُ المنشود في الكتاب

موضوع الكتاب هو الكمال عن طريق الفضيلة، وفيما يرى قُدامى اليونان أن الكمال هو في أن يبلغ الشيءُ تمامَهُ، يرى غريغوريوس أن الفضيلة سَيرٌ إلى الأمام، وأنّ الكمال من ثمّ نموٌّ دائم وتطوُّر متواصل؛ وموسى يُجسّد هذه الفكرة في حياته التي كانت مَسيرة إلى أرض الميعاد، وهكذا فالكمال حركةٌ دائمةٌ نحو اللامحدود واللامُتناهي، حركة

«تنسَى ما وراءها وتمتدّ إلى ما أمامها» (فيل ٣: ١٣)، حركةُ إنسان يجدُّ إلى المجهولِ ويتفوّق أبدًا على ذاته. ذلك هو الابتكار الرائع الذي تفرَّد به غريغوريوس. لقد تصوَّرَ فيلون وأوريجانس الحياة الروحيّة مراحل متعاقبة، ولكنها لم يجعلا من الفضيلة حركة تجتاز هذه المراحل المتعاقبة.

ويرى أفلوطين أنّ الحياة الروحيّة تقومُ بإعادة النفس إلى طبيعتها الحقيقيّة، وبتطهيرها من كلّ ما تحمله من العناصر الغريبة، وهذا ما يذهبُ إليه غريغوريوس أيضاً، ولكنّه يرى أنّ طبيعة النفس الحقيقيّة هي في كونها صورةً لله، وأنّ الحياة الروحيّة تقومُ بجلاء هذه الصورة، وبتحوّل النفس تحوّلاً مُتواصلاً إلى الله؛ والصورة يجب أن تُشبه صاحِبها وأن تختلف عنه: فالروح المخلوقُ يُشبه الله في كونه «لا حدَّ له»، ويختلف عنه في كونه حركةً لا محدودة؛ وهكذا فجوهر النّفس هو «اشتراك» في الله دائمُ النموّ، وأبدًا غير مُنتهٍ. وقد ترفض الحريّة هذه الحركة الناميّة، فيكون من ذلك الشرّ، والتنكُّر لطبيعتها؛ وقد تسيرُ في تيّارها فتكون الفضيلةُ وتحقيقُ الإنسان لجوهره الحقيقيّ.

ولكنْ أيُّ الحركات توجّهُ الإنسانَ إلى الله وتجعله يتمثّل بالله؟ فالله غيرُ متحرّك وغيرُ قابل التحوّل، والنفس في جوهرها حركةٌ؛ فكيف يتمّ التمثّل بين الحركة واللاحركة؟ والحلّ عند غريغوريوس في أنّ النموّ حركة، وفي أنّه ديمومة في الحركة؛ وفي هذه الدّيمومة استقرارٌ هو تمثّل بالله.

من ذلك كلّه نرى أن التّصعيد نحو الله هو حالة ثابتة، أي هو تفوُّق على الذات لا ينقطع، في تجرّدات مُتعاقبة تَستمطرُ نعَمًا جديدة لمراحل جديدة، وقد تشقُّ هذه التجرّدات على النفس، وهي تحسبُ أبدًا أنّها

بلَغت الغاية، حتّى إذا انفتحت بالتجرُّد الكامل على الله تستسلم لهُ استسلامًا كاملاً، وتُصبحُ، في تخلّيها عن كلّ هوىً، فانية في الحب الصّافي.

كلُّ قياس في الكمْ تتبعُهُ بعضُ الحدود الخاصّة؛ ومَن يَنظُر إلى الذّراع أو إلى العدد عشرة يَعلم تمام العِلم أنّ الكمال فيهما يقوم بأنّهما يبتدئان عند حدٍّ ما، وينتهيان عندَ آخر. أمّا في موضوع الفضيلة فقد أخذنا عن الرسول نفسه أن ليس لِكمالنا سوى حدٍّ واحد هو أن لا يكونَ له حدّ؛ فهذا الرّجل الواسعُ والثاقب العقل، هذا الرّسولُ الإلهيّ، لم يتوقّف قطُّ، في سبيل سَعْيه إلى الفضيلة، عن الامتداد إلى ما هو أمامه؛ فلم يكن عنده التوقّف عن السّعي مَوْطن أمانٍ؛ لماذا؟ لأنّ كُلّ خير في ذات طبيعته غيرُ محدود، ولكنّه يَجد حدًّا له في ضدّه، وهكذا فالحياة في الموت، والنّورُ في الظلمة؛ وهكذا فكلّ خيرٍ يتوقّف عند الحقائق المُضادّة له. فكما أنّ نهاية الحياة هي بداية الموت، كذلك التوقّف عن السعيّ في طريق الفضيلة هو بداية السّعي في طريق الرذيلة. وهكذا فلم يكن في كلامنا ضلالٌ عندما قلنا إنّ الكمال في موضوع الفضيلة لا يمكن أن يُوضع له حدّ. وقد أوضحنا أنّ ما ينحصر ضمنَ حدود لا يكون من الفضيلة (حياة موسى).

• غريغوريوس والعلوم القديمة في كتابه

يقف غريغوريوس من العلوم الدنيويّة موقفين مختلفين، فهو من جهة يُحرّض على اكتسابها واستخدامها في أمور الدين، وهو من جهةٍ أخرى يحذّر من أخطارها؛ وقد أكبّ هو على اكتساب ما استطاع منها، وعلى التعمّق في أساليبها، وقد ظهر أثرُها في كتابه، فنحا نحو المدرسة السُّفسطائيّة الثانية، واتّبع نظامها في التأليف، فانجرَّ إلى معالجات

جانبيّة كثيرة، وإلى قياساتٍ جدليّة مُتسلسلة، وإلى أوصافٍ واستطرادات تستهوي السُّفسطائيّين، وإلى وجوهٍ كثيرة من المجاز والطباق والجناس وما إلى ذلك من ضروب البيان والبديع التي كانوا يرصّعون بها كتاباتهم، كما في قوله: «ظلمةٌ نيّرة»، و«الصعود إلى أسفل»، حركة ثابتة»...

وفي الحقل الفلسفيّ كان لأفلاطون التأثير الأوسع في «حياة موسى»، فقد جاراه غريغوريوس في النظر إلى وهميّة العالم الماديّ والتحرُّق إلى العودة، وفي تحليق النفوس المجنّحة إلى الأعالي، متفوّقة على ذاتها، ومتنقّلة من قمّة إلى قمّة أعلى، في سبيل الأسمى. فصورة النفس الخفيفة، التي تمتدُّ بطبيعتها إلى الخير الجذّاب، منتشرة في آثار أفلاطون وأفلوطين. ومن الآراء الأفلاطونيّة فكرةُ العودة إلى الكينونة بالتعرّي من الظاهرات الحسيّة، ومرادفةُ الكينونة للخير، وسلبيّة الشرّ، ومقارنة الشرّ بتمنّع العين عن رؤية النور، وتقسيمُ النَّفس إلى عقليّة وشهوانيّة وغضبيّة، وتشبيهُها بعربةٍ يجرُّها حصانان ويقودها العقل... وقد اختلف العلماءُ في موضوع المدرسة الفلسفيّة التي ينتمي إليها غريغوريوس وكان أرجحُ الآراء أنّ مذهبه هو صورةٌ أفلاطونيّة خاصّة، مستقلّة عن الأفلاطونيّة الحديثة، تجمعُ عناصرَ أفلاطونيّة إلى عناصر أرسطوطاليسيّة ورواقيّة.

٣. الأعمال النُّسكيّة والرُّهبانيّة

أ) في التبتُّل: هذا البحث من أعمال غريغوريوس الأولى، كتبه بُعَيْد رسامة باسيليوس الأسقفيّة (٣٧٠) وقبل أن يُدعى هو إلى

الأسقفيّة؛ وهو شهادة على التجديد الذي قام به باسيليوس. يبرزُ غريغوريوس في بحثه هذا الفكرة التي يقوم عليها مذهبُه اللاهوتيّ الصُّوفيّ، أي خلقَ الإنسان على صورةِ الله؛ وهو يجدُ في التأمُّل والمشاهدة ما يُطهِّر ويرفعُ إلى ما فوق الحسيّات، إذ إنّ الله فوقّ التصوّرات البشريّة.

ب) **في الكمال المسيحيّ**: بحث موجّه إلى الرّاهب أولمبيوس، وهو تعليق على نصوص القدّيس بولس المسيحانيّة. فالقداسة هي عمل المسيح في النفس. وخاتمة هذا البحث هي أنّ الكمال الحقيقيّ لا يتحقّق أبدًا، ولكنّه حركة دائمة إلى الأصلح. الكمال لا يحدّه حدّ.

جـ) **اسم المسيحيّين ووظيفتهم**: بحث موجّه إلى مُراسِل اسمه هرمونيوس، وخلاصته أن المسيحيّة اقتداء بالطبيعة الإلهيّة، وتجديد للصورة الأولى.

د) **حياة ماكرينا**: كُتبت هذه السِّيرة عقبَ وفاة القدّيسة (كانون الأول ٣٧٩)، التي كانت نموذجًا للكمال المسيحيّ؛ وسيأتي الكلام عليها.

هـ) **المؤسّسة المسيحيّة**: هذا المؤلَّف المهمّ لم يُكتشَف كاملاً إلاّ في الأيّام الأخيرة، وهو ممّا كتبه غريغوريوس في أواخر حياته، أي بعد سنة ٣٩٠، وينطوي على هيكليّة شاملة لآراء غريغوريوس الرئيسيّة، وعلى كلمته الأخيرة في طبيعة النُّسك، ومقاطع من كتابَيْه في التبتّل وفي حياة موسى. وإذ كتبه إلى الذين «يحقّقون معًا صيغة الحياة

الرسوليّة» فقد حاول أن يستخلص هدفَ الحياة الرُّهبانيّة والوسائل التي تُوصل إليه. وهدف الحياة الرُّهبانيّة هو أن يرتقي بالإنسان الرّوحاني إلى مرحلة البلوغ، وهذا النموّ هو عمل تشترك فيه النعمةُ والحريّة. الإيمان والمعموديّة جعلا الإنسان روحانيًّا، وكانا في أصل تطهير مُتنام حرّر النفس من الانطواء، ونقلها إلى الثقة والثبات بحيث أصبحت مؤهّلةً لرؤية النور الغير المُدرك. التواضع وحده يجعلها شبيهة بالمسيح.

في القسم الثاني من الكتاب تشديد على ممارسة الحياة المشتركة، حيث يصبح كلّ واحد، بكفره بذاته وبكلّ إرادة ذاتيّة، في خدمة الجميع. النُّسك هو نظام خدمة متبادَلة، في الفرح وتألُّق المحبّة؛ والطريق تصبح واضحة

> عندما تتَّخِذ الجمعيّة دليلاً مَن أُلقِيَت إليه مهمّة قيادة الإخوان إلى ميناء الإرادة الإلهيّة (٩٧).

في القسم الثالث دفاع شديد عن حياة التأمّل، وهذا من ذاتيّات غريغوريوس الأشدّ بروزًا؛ فالصلاة قمّة سُلّم الفضائل.

> من يُكبّ على الصلاة، بقيادة الروح وعونه، يضطرم بحبّ الربّ وبالرغبة في مناجاته، ولا يجد ما يروي ظمأه إلى الصلاة، بل تزداد أبدًا رغبته في تطلّب الصلاح الإلهيّ (٧٨).

٤. الخُطب والمواعظ والرسائل

الخُطَب والمواعظ هي الأعمال الأقلّ قيمة في تراث غريغوريوس النيصـيّ، وهي دون خُطب ومواعظ الكبّادوكيّين الآخرين،

فغريغوريوس لا يملك نظرة باسيليوس الواقعيّة، ولا عفويّة النزينزيّ وخياله؛ وأساليب السفسطائيّة الثانية التي يعتمدها لا تنقاد له كما انقادت لهما، بل تبدو عنده خالية من الروح ومن التأثير. وقد عالج في خطبه ومواعظه قضايا لاهوتيّة وأخلاقيّة، من مثل لاهوت الابن والروح القدس، وتجاوزات مُرجئي المعموديّة، ومعاندي كلمة الله، وذوي الأطماع... ولغريغوريوس خُطَب ومواعظ مناسبات كتلك التي كان يلقيها بداعي الأعياد الكنسيّة (الميلاد، والفصح، والظهور، وأعياد القدّيسين...) وهو أوّل من وعظ بداعي عيد الصعود، فكانت عظته فيه الشهادة الأولى على انفصال ذلك العيد عن عيد العنصرة (أيار ٣٨٨).

أمّا رسائل غريغوريوس فلم يصل إلينا منها إلاّ ثلاثون أشهرها الثانية والثالثة اللتان عرض فيهما لموضوع الحجّ إلى القدس، وشجب فيهما الغلوّ في تعظيم ذلك الحجّ.

> الانتقال من مكان إلى مكان لا يفيد في التوجّه إلى الله، ولكن حيثما تكون يأتي الله إليك، إذا كانت غُرَف نفسك مهيّأة لأن يسكن الله فيك. ولكن إذا كان إنسانُك الداخلي حافلاً بالأفكار الشريرة وكنت على الجلجلة، أو على جبل الزيتون، أو على صخرة القيامة، فإنّك ستكون بعيدًا عن تقبّل المسيح فيك بقدر ما يكونه الإنسان الذي لم يعترف بعدُ بالمسيح.

ثالثًا: فكرة غريغوريوس الفلسفيّة واللاهوتيّة

لقد اصطبغت فلسفة غريغوريوس بالصبغة الأفلاطونيّة (الأفلاطونيّة المتوسّطة والأفلاطونيّة الحديثة الناشئة) التي تظهر بوضوح

في حواره مع أخته ماكرينا في موضوع الروح والقيامة، وعلى خطّة أفلاطون في حوار فيدون. والذي تمتاز به أفلاطونيّة غريغوريوس هو أنّها مطبّقة تطبيقًا توفيقيًّا على الفكرة المسيحيّة وهذا ما يميّز غريغوريوس النيصيّ عن زميليّهِ الكبّادوكيّين الكبيرين وما جعله، في نظر الباحثين، المفكّر العميق الفلسفة.

وهو في لاهوتيّاته يستند كزميلَيْهِ على التقليد الاسكندري الذي عُرف به فيلون وأوريجانس؛ وكثيرًا ما يذكر أوريجانسَ، وقد أخذ عنه فكرة الاصلاح، في آخر الأزمان، كما سنرى.

وأمّا اللاهوت النُّسكي والصّوفي فقائم عند غريغوريوس على كلمة بولس «أنسى ما ورائي وامتدّ إلى ما أمامي» (فيل ٣: ١٣)؛ فالكمال عنده التصعيد المتواصل نحو الله، كما فصّلنا ذلك في دراستنا لِـ «حياة موسى».

غريغوريوس النّيصي هو، بعد أوريجانس، صاحب العرض الهيكليّ المنظّم للعقيدة المسيحيّة. إنّه ينطلق من الكتاب المقدّس «معيارًا للحقيقة» (ضد أفنوميوس ١: ١٠٧) و«دليلاً للعقل» (١: ١٤، ١٢٦)، ويجعل محلاً واسعًا في لاهوته للفلسفة والعقل في غير إغفال لما يقدّمه التقليد من مُعطيات.

لا يحقُّ لنا أن نُثبت ما نريد. إنّنا نجعلُ الكتاب المقدّس معيارًا ومقياساً لجميع عقائدنا؛ ولا نوافق إلاّ على ما يتّفقُ ومضمون هذا الكتاب (النفس والقيامة).

إذا عجز تفكيرنا عن احتواء هذه المسألة، يجب علينا أن نتشبّث بالتقليد الذي ورثناه عن سلسلة الآباء (لا يوجد ثلاثة آلهة).

١. معرفة الله

على أثر فيلون وأفلوطين يرى غريغوريوس أنّ معرفة الله ليست معرفة طبيعيّة فقط، تنطلق من الأشياء الحسيّة إلى الأشياء فوق – الحسيّة؛ ولكنّه يجعل قمّة معرفة الله في تعالي النفس البشريّة إلى مشاهدة تأمّليّة لله مباشرة، إلى تمتُّع مُسبق بسعادة السماء، إلى «نشوة إلهيّة وعقليّة» (التطويبات ٦). وإن ما عنده من لمحات أساسيّة «للاهوت سلبيّ»، ومذهبه في موضوع الاسم الإلهيّ، وتصوّره للانخطاف كلّ ذلك جعل منه سابقًا لذيونيسيوس الأريوباغي، ومُلهمًا لمكسيمُسَ المعترف.

٢. عقيدة الثالوث

الثالوث ثلاثة أقانيم في جوهر واحد، وتمييز أحدهم عن الآخر هو تمييز علاقة لا تمييز جوهر؛ وكلّ عمل إلهيّ إلى الخارج هو عمل الأقانيم الثلاثة، أمّا العلاقات المتبادلة في الداخل فهي كما يلي: «هنالك المبدأ وما يصدر عن هذا المبدأ؛ وفي ما يصدر عن المبدأ ما يصدر مباشرة، وما يصدر بوساطة الصادر مباشرةً عن المبدأ». فغريغوريوس كسائر الآباء اليونانيّين يُعلن أن الروح القدس ينبثق من الآب بالابن، ومع ذلك فللروح القدس مع الآب علاقته الطبيعيّة. وفي المقال «ضد المقدونيّين» يشبّه غريغوريوس الثالوث بثلاثة مشاعل، يُشعل الأوّلُ منها الثاني، ويشعل الثالث بوساطة الثاني؛ وفي عظته التفسيريّة عن «الصلاة الربيّة» يوضح «أن الروح القدس من الآب، وأنه أيضاً من الابن؛ وأنّ هذا الروح الذي هو الله هو أيضاً روح المسيح». وهكذا كان كلامه على

العلاقة التي بين الروح والابن أشدّ وضوحًا من كلام الكبّادوكيّـينِ الآخرَين.

٣. المسيحانيّة

الإنسان في حركة دائمة، تشدّه رغبةٌ لا حدود لها هدفها الله، الجمال اللامتناهي الذي يزداد بعدًا كلّما اقتربتِ النفس منه. إنّه غيرُ المدرك، وهو مع ذلك محطّ الرغبة البشريّة التي لن تجد السعادة إلاّ فيه. والإنسان، بعد عثرة أبويهِ الأوّلينِ، ثقُلت خُطاه، «وتهاوى رملُ الكثيب تحت قدَميهِ كلّما حاول التصعيد فيه»، فكان لا بُدّ له من عونٍ سماويّ ينتشله من عثرته ويعيد إليه النعمة المبرّرة، وهكذا كان التجسّد الذي جدّد خليقته المُحْرَجة، إذ أرسل الله ابنه، وسكب الرحمة في الطبيعة المتعثّرة، وفتح قلبها لمحبّة الله.

وغريغوريوس يعلّم بوضوح أن في المسيح طبيعتينِ كاملتينِ غيرَ ممتزجتينِ، طبيعة إلهيّة كاملة، وطبيعة إنسانيّة كاملة في شخص واحد يجمع ميزات كلّ من الطبيعتين؛ وأن اللوغس تكوّن في حشا العذراء «كما في إناء إلهيّ لم تصنعه يد بشريّة»؛ والعذراء من ثمّ «ثيوتوكُس» لا «أنثروبوتوكس» كما ادّعى المتحذلقون؛ وهكذا وجدت المرأةُ في المرأة مَن يدافع عنها وينقذها.

٤. الأسخطولوجيا (الأزمنة الأخيرة)

وإن رفض غريغوريوس رأي أوريجانس في أن وجود النفوس سابق

لوجود أجسادها، فإنّه يوافقه على أنّ عذاب جهنّم وقتّي، ويرى معه في الإصلاح العامّ، في آخر الأزمان الخاتمة الرائعة لتاريخ الخلاص، إذ يخلُصُ الجميع حتى الشياطين (وهذا ليس تعليم الكنيسة).

٥. الافخارستيّا

«نحن على ثقة الآن أنّ الخبز، حالما يتقدّس بكلمة الله، يتحوّل إلى جسد». «تلك هي الموهبة (عدم الفساد) التي يمنحها بتحويل طبيعة الأشكال إلى هذا» (الجسد غير المائت). (التعليم الكبير ٣٧ : ٣، ١٢).

خاتمة

غريغوريوس النّيصـيّ مفكّر صوفيّ يمكن النّظر إليه من نواحيَ مختلفة لأنّه في آنٍ واحد فيلسوف، ولاهوتيّ، وشاعر، ومتصوّف؛ ولكن ما يميّزه عن غيره بنوع خاص هو عبقريّته البنّاءة. وروحانيّته أبدًا ذات توجّه عقائدي وارتكاز مسيحاني وسرّي. أما شعره فدون شعر النزينزي، وخالٍ من الروح والعفويّة، وأمّا أسلوبه الكتابي فيعقّده بعض التعقيد غوصةُ على المعاني البعيدة الأغوار والواسعة الآفاق.

غريغوريوس أعمق فيلسوف يونانيّ في العهد المسيحيّ. وعمله الصّوفي صدى لخبرة شخصيّة، وهو في الحقيقة مؤسّس اللاهوت الصُّوفي. لا شك أنّه تأثّر بأوريجانس ولكنّه عرف أن يكون ذاتيًّا، وأن يصـبغ صوفيّته بروحانيّة سامية قائمة على التامل بأسرار الله وحكمته اللامحدودة.

لم يكن غريغوريوس إداريًّا كأخيه باسيليوس، ولم يجاره في العمل، ولكنّه وضع له في موضوع العفّة والتبتّل خطّة الحياة الرهبانيّة، وكان بذلك مرشد الرهبان الروحيّ؛ وبعد موت باسيليوس حرص على إتمام عمل أخيه سواء كان ذلك من الناحية اللاهوتيّة أم من الناحية الروحيّة، وقدّم للحياة الرُّهبانيّة نظامها الأمثل.

حياة ماكرينا

طبعاتها وترجماتها:

حياة ماكرينا من أروع آثار غريغوريوس النيصي روى فيها صفحات من حياة أسقيفته الكبرى، ونهج فيها نهجَ مشاهير من دوّنو السِّيَرَ في العصور القديمة، وسلكوا في سير القدّيسين مسلكًا تظهر فيه القداسة في أجلى مظاهرها؛ وهكذا فماكرينا تتجلّى في أسمى مراتب القداسة، وغريغوريوس يدعوها «العظيمة»، و«القديسة»، و«الطّوباويّة»، و«النفس الإلهيّة»... وهو يجعلها في مصفّ الشّهداء، أي في رتبة القداسة العُليا، ويذهب في سرده مذهب البلاغة الرَّفيعة وان ادّعى في مطلع رسالته انه سيكتُب في البساطة التي يقتضيها الموضوع. قال أحد العلماء: «إن حياة ماكرينا أروع سيرة في مجموعة سِيَر القديسين القديمة». واستغرب غيره ان يكون هذا الأثر الرّائع في أسلوبه وفوائده الإنسانيّة قد أُغفِل زمنًا طويلاً؛ فقد ظهرت ترجمتُه الأُولى إلى اللغة اللاتينيّة سنة ١٥٥٣ في مجموعة من سِيَر ٢٢٥ قدّيساً قديمًا قام بها بياترو فرانسيسكو زيني كاهن فيرونة، وكان لهذه المجموعة هدف دفاعيّ، وقد طُبعت حياة ماكرينا باللاتينيّة عدّة مرّات قبل ظهور النصّ اليونانيّ، وذلك في مجموعات شتّى؛ وكان ظهور النصّ اليوناني

مطبوعًا سنة ١٦١٨ في ملحق لمجموعة أعمال غريغوريوس النيصّي المطبوعة سنة ١٦١٥. وفي سنة ١٩٥٢ ظهرت الطبعة العلميّة الأولى لحياة ماكرينا بعناية فرجينيا كالاهان. وفي اللغات الحديثة ظهرت ترجمة بالفرنسيّة وطُبعت في مجموعة من سيَر القديسين سنة ١٦٥٣، وهي، على طرافتها لا تخلو من ضُعفٍ وتحريف. ولم تظهر الترجمات الأخرى إلاّ منذ القرن التاسع عشر، فالترجمة الروسيّة سنة ١٨٧١، والترجمة الألمانيّة سنة ١٨٧٤، والترجمة اليونانيّة الحديثة سنة ١٨٩٣. وتعدّدت التّرجمات والطّبعات في القرن العشرين. فهنالك ترجمتان بالانكليزيّة ظهرت إحداهما سنة ١٩١٦ في مجموعة Early Christian Writers، وظهرت الأُخرى سنة ١٩٦٧ في مجموعة نصوص الآباء التي طبعتها جامعة واشنطن الكاثوليكيّة؛ وهنالك ترجمتان بالألمانيّة ظهرت إحداهما سنة ١٩٢٧ والأخرى سنة ١٩٦٣؛ أمّا أحدث الترجمات فالترجمة الفرنسيّة التي ظهرت سنة ١٩٦٨ وتناولت موقع المرأة عند الآباء، وطُبعت في سلسلة «الآداب المسيحيّة» بباريس. وهذه أخيرًا الترجمة العربيّة وقد اعتمدنا فيها على نص وترجمة «الينابيع المسيحيّة» (Sources Chrétiennes) الرقم ١٧٨ بقلم بيار مرَفال Pierre Maraval.

قيمتها التاريخيّة

إلى جانب السّرد الفنّيّ الرفيع الذي جرى عليه غريغوريوس في هذه السيرة استطاع أن يقدّم لنا وقائع وحقائق تاريخيّة قيّمة. فهو يُطلعنا على أسرته في جذورها ومستواها الاجتماعي والاقتصادي، وما تقلّب

عليها من أحداث، وما كان لأفرادها من أثر في قريب الأقاليم وبعيدها، كما يطلعنا على أحوال الجماعة المسيحيّة في آسية الصّغرى ونظام الحياة الرُّهبانيّة والنّسكيّة فيها، ومراحل الصّلاة في الأديار، وطقوس الجنائز والدّفن وما يسبقها ويرافقها، والعادة التي كانت شائعة في كبّادوكيّة وآسية الصّغرى وكانت تقوم بتلاوة صلاة الشكران والتمجيد عند إضاءة المصابيح، تلك الصّلاة القديمة العهد والتي لا نزال نجد بعض آثارها في عدّة ليتورجيّات شرقيّة.

أمّا في ما يتعلّق بموت المسيحيّ وجنازته فاننا نرى في سيرة ماكرينا أن عادة المسيحيّين في ذلك العهد كانت تقضي بأن يُوجّه المائت إلى الشّرق، فقد ذكر غريغوريوس أنَّ سرير ماكرينا حُوّل إلى الشرق في ساعاتها الأخيرة، وانها كانت تصلّي في هذا الاتّجاه، وكان المسيحيّون الأوّلون يجعلون الجنّة في المشرق، وينتظرون عودة المسيح من المشرق يوم القيامة العامّة، كما ينتظرون منه الملائكة الذين ينقلون نفوس الأبرار إلى الجنّة. وكانت العادة تقضي بأنّ تُغلق عينا الميت وفُوهُ، وبأن يُندب وتُعدّد محاسنه، وبأن يعلو حواليه النحيب والعويل، ويُنتف الشّعر، وتُمزّق الثياب، وتُقرع الصُّدور، وقد تدخّل غريغوريوس ودعا إلى الهدوء والإقلاع عن تلك العادات البعيدة عن روح المسيحيّة.

ومن عادة تلك الأيّام أن يُغسَل أوّلاً جُثمانُ الميت، ويُنضح أحياناً بالطيب، ثُم يُلبس ثوبًا ثمينًا من قطن أو حرير، وأمّا جثمان ماكرينا فقد أُلبس ثوبًا أبيض من قماش ناعم بسيط، ثم غُطّي برداءٍ أسود كان لوالدتها، تمشّيًا وروحَ الدّير النُّسكيّة؛ وبعد ذلك سُجّي أمام السّاهرين

تتعالى من شفاههم وقلوبهم الصّلاة والمزامير حتى صباح اليوم التالي الذي جرت فيه الجنازة المهيبة، والدّفن في جوار الشهداء والقدّيسين.

المثاليّة الفلسفيّة فيها

المثاليّة التي يعمل غريغوريوس على إبرازها في سيرة ماكرينا هي مثاليّة «الفلسفة»، التي درجت عليها شقيقته، وبلغت بها قمّة الفضيلة. وهذه المُثاليّة لا تنحصر في الحياة الرُّهبانيّة، ولكنها تمتدّ لتشمل كمال الحياة المسيحـيّة بوجهٍ عامّ؛ ومن ميزاتها التطوُّر المتواصل في طريق الفضيلة؛ والتحرُّر من الميول والأهواء البشريّة؛ والانفلات التأمُّلي من حياة الجسد انتقالاً إلى الحياة الملائكيّة.

جَهِد غريغوريوس في أن يصوّر لنا هذه الفلسفة في حياة ماكرينا التي ارتقت إلى ما فوق الطّبيعة بتحرّرها الكامل من متطلّبات الطبيعة، وبتصعيدها في عالم التأمّل إلى عالم القوّات العلويّة، إلى لقاء المسيح منتهى آمالها وخاتمة ما تصبو إليه. تلك فلسفة الحبّ الإلهي، والذّوبان في روحانيّة تمتدّ امتداد الكمال الذي يأبى أن يكون له حدود.



La région d'Annisa
(d'après la carte de G. de Jerphanion, « Ibora-Gazioura ? Étude de géographie pontique », *MFO* V/1 (1911), p. 345).

(Sources Chrétiennes 178)



من غريغوريوس أسقف نيصص[1]

رسالة في حياة القدّيسة ماكرينا

تمهيد:

١. قد يوحي عنوان هذا المؤلَّف بأنّ صيغته الأدبيّة صيغة رسالة، ولكنّ حجمَه، وهو يمتدّ إلى حجم بحثٍ طويل، يتجاوز حدود الرّسالة؛ وعُذْرنا في ذلك أنَّ الموضوع الذي طالبتنا بأن نُعالجه ونكتب فيه يتجاوز حدودَ الرّسالة. وانّك، ولا شكّ، ذاكرُ اللقاء الذي جرى بيننا عندما كنتُ متوجّهًا إلى أورشليم[2]، وفاءً لنذر نذرتَهُ، لأتتبّع في

(١) من الأرجح أنّ هذه الرسالة موجّهة إلى الرّاهب أولمبيوس، وكأنّي بهذا الراهب قد طلب إلى غريغوريوس أن يحدّثهُ عن مثاليّة الفلسفة المسيحيّة، وهي، على حَدّ قول اكليمنضس الاسكندريّ «الحياة الأخلاقيّة يحرّكها الإيمان»، فما كان من غريغوريوس إلاّ أن يقدّم للراهب مثالاً في الطاعة، كما فعل عندما وضع «حياة موسى». وأن ينسج له حول ماكرينا فصولاً رائعة في فلسفة الحياة المسيحيّة.

(٢) يرجع تاريخ سفر غريغوريوس إلى ما بين ٣٨٠ و٣٨٢، وقد ورد ذكر هذه الرّحلة القدسيّة في رسالته الثانية التي حذّر فيها المؤمنين، ولا سيّما الرهبان والعذارى، من الحجّ إلى الأماكن المقدّسة في فلسطين، وبرّر سفره بكونه مُقيّدًا بنذر لا بُدّ من وفائه، وبكونه مدعوًّا إلى حضور أحد المجامع.

تلك الأماكن آثار مجيء الربُّ في الجسد، فقد وافيتُ لزيارتك بالقرب من مدينة أنطاكية. وقد خُضنا إذ ذاك في موضوعاتٍ شتّى (ولم يكن من المعقول أن يخلو ذلك اللقاء من الحوار بعدما عرض عقلُك النَّير مسائَل متعدّدة للنّقاش)، وكما يجري غالبًا في مثل هذه الحالات جرَّنا الحديث إلى ذكر شخصٍ بارز شهير. إمرأة إذا صحّ أن ندعوها امرأة. كانت موضوع كلامنا، إذ انّني لا أدري هل من اللائق إن ندلّ بألفاظٍ طبيعيّة على من ارتفعت فوق الطّبيعة[٣]. وحديثنا لم يُدعم بروايات الآخرين، ولكنه كان يورد بدقّة أمورًا خَبَرناها بأنفسنا، ولم نَستشهد فيها بأقوالِ سوانا؛ فالعذراء التي تحدَّثنا عنها لم تكن من أسرة غير أسرتنا، ولو كانت كذلك لكنّا بحاجة إلى غيرنا للوقوف على الخوارق المتعلّقة بها، ولكنّها كانت ابنةَ أبَوينا، باكورة ثمار المستقبل، نبتت بكرًا في حشا والدتنا. و إذ رأيتَ أنّ رواية أعمالها الصّالحة ذاتُ فائدة، وحِرصاً منّي على أن لا يُنسى ذكرها في مستقبل الأيّام، وعلى ان لا تذهب مع الذاهبين لا يُفيد من فضيلتها أحد، مدفونةً في الصّمت، تلك التي ارتقت، بفضلِ الفلسفة، إلى أعلى قممِ الفضيلة الإنسانيّة، رأيتُ من الجدير بي أن أُطيعك وأنزل عند رغبتك، فأروي لك تاريخ حياتها بأُوجز ما أمكن من الكلام، وفي أسلوب بسيط وبعيد عن التّنميق.

(٣) نلمس في كلام غريغوريوس الانتقال من صيغة المتكلّم المفرد (أنا...) إلى صيغة المتكلم الجمع (نحن...)؛ كما نلمس في هذا المقطع تشديده على اللفظة «امرأة» مشيرًا إلى ان ماكرينا بارتقائها إلى ما فوق الطبيعة، وببطولتها الروحيّة أزالت الفرق الجنسيّ بين الرَّجل والمرأة.

مولدها:

٢. كانت هذه العذراء تُدعى ماكرينا على اسم جدّتنا لأبينا الذّائعة الصّيت في الأسرة، والتي جاهدت في زمن الاضطهادات واعترفت عدّة مرّات بالمسيح. وهكذا دُعِيت الطّفلة ماكرينا. و إلى جانب اسمها الرّسميّ هذا الذي كانت تُدعى به، كان لها اسم آخر سرّيّ، أُطلق عليها على أثر ظهورٍ جرى قُبيلَ ولادتها؛ وذلك أن أُمّها. وهي امرأة فاضلة وشديدة التّقوى، كانت تؤثر حياة التبتّل وتصبو إلى الكمال العُذريّ آبيةً الزّواج والحياة الزّوجيّة؛ ولكنّها كانت يتيمة، وكانت إلى ذلك تمتاز بجمال الجسم، وكان طالبوها كثيرين، والخطرُ يُحدق بها من كل جانب، فرأت من الآمَن لها أن تختار رجلاً تأوي إلى فضله وسموّ أخلاقه وتجد لديه حمىً ونجوةً من الخطف[٤] والمذلّة. وهكذا كانت الأمّ التي ولدت بكرها الطّفلة التي نحن آخذون في الحديث عنها. فعندما أزفت ساعة الولادة التي من شأنها أن تضع حدًّا لآلامها، غفت ونامت، فبدا لها أنها تحمل بين ذراعيها الطفل الذي لا يزال في احشائها، وأن هنالك شخصاً أشدّ مهابةً من أيّ إنسان، يتراءى لها ويطلق على الطفلة التي بين ذراعيها اسم تقلا، تقلا تلك التي اشتهرت في العذارى. وقد جرى ذلك ثلاث مرّات، وبعد المرّة الثالثة زالت الرُّؤيا التي سهّلت لها الولادة. وعندما أفاقت الأمّ من غفوتها شاهدت الطّفلة التي

(٤) يروي باسيليوس في رسائله ان الخطف كان من عادة ذلك العصر، وان الكنيسة كانت تدينه وتفرض على الخاطف والمشتركين معه عقوباتٍ مختلفة؛ وفي نيسان ٣٢٠ أصدر قسطنطين منشورًا ضمّنه عقوبات شديدة للخاطفين ومساعديهم.

تراءت لها في الحلم. ولم يكن الاسم الذي أُسِرَّ إليها به الاّ ليدلَّ على ما ستكون عليه حياة الطفلة ومستقبَلُ أيّامها بين العذارى.

نشأتها

٣. ترعرعت الطّفلة وكثيرًا ما كانت تغتذي بين ذراعَي أمّها، وان كانت لها مُرضِعها الخاصّة. وعندما تجاوزت سنّ الطّفولة الأولى كانت تحفظ بسهولة ما كان يُلقى على الأحداث من علوم، كما كانت تتلقّى بارتياح كل ما كان ذووها يُقرّون تلقينها، وكانت مواهبها تتجلّى شيئًا فشيئًا، وتبرز بروزًا ظاهرًا. وكان همّ والدتها أن تلقّنها، لا الثقافة المدنيّة[٥]، التي كانت شائعة في سنوات الدراسة الأولى، وكانت تقوم في أكثر الأحيان على أعمال الشّعراء. كانت ترى من المُخزي وغير اللائق أن تجعلَ أهواء المأساة، أهواء تلك النساء التي تقدّم للشعراء موضوعات وحيهم وشعرهم، وفواحش المهزلة، أو داوعِي فواجع طروادة، مادّةً لتثقيف طبيعة رَخّصة وسريعة التّأثُّر قد تعبَثُ بها أقاصيصُ نساءٍ قبيحةٌ وشائنة[٦]. فكان منهاج دراسة الفتاة الصغير ينحصر في ما هو أقرب إلى عقلها من الكتاب المقدّس الذي أوحى به الله، ولاسيّما سفر حكمة سليمان وما في هذا السِّفر ممّا يساعد الحياة

---

(٥) . كان جمال الادب القديم يستهوي غريغوريوس، ولكنّه كان يجد في أسفار الكتاب المقدّس ما يُغنيه عنه.

(٦) يستنكر افلاطون في كتابَيه الجمهوريّة والشّرائع إدخال الميثات الهوميريّة في التربية، وكان على رأيه عددٌ كبير من آباء الكنيسة.

الأخلاقيّة. ولم تكن لتُغفل سفر المزامير، فكان رفيقها توزّع أقسامه على مراحل نهارها: عند نهوضها من النوم، عندما تباشر العمل، وعند نهايته، قبل تناول الطّعام وبعده، عند الإخلاد إلى النوم وعند الاستيقاظ للصّلاة، في كل تحرّكاتها وسكناتها كان سفر المزامير رفيقها وخدينها.

مشروع زواج

٤. بعدما شبّت الفتاة في ما بين مشاغلها، ومرِنت يدُها على شُغل الصُّوف، وبلغت الثانيةَ عشرة من العمر، أخذ ربيع الشباب يتألّق فيها، وزهوة الصِّبا يتلألأُ عليها سِحْرُها؛ ومن العجيب أن جمالها المُتخفّي لم يلبث في الخفاء؛ وهو جمالٌ ساحِرٌ لم يكن له في تلك النّاحية نظير، ولم تستطع أيدي الرَّسّامين ان تنقل بهاءَها؛ وهذا الفنّ البارع في كل شيء والمجترئ على أصعب الموضوعات وأعظمها، والذي استطاع، عن طريق المحاكاة، أن ينقل العناصر[٧] نفسها، عجز عن أن ينقل جمالها المتناسق بأمانة ودقّة. وقد تهافت طالبوها على ذويها. وكان أبوها رجلاً حكيمًا وبصيرًا بأمور الدُّنيا، فاختار لها، من بين جمهور الطالبين، شابًا ذا حسب وكمال، يربطه بالأسرة نَسَب، كان قد أنهى دراسته منذ قليل. فأقرّ أن يخطبها له عندما تصير في سنّ الزّواج. وفي انتظار اليوم السّعيد كان الشابّ يدغدغ أطيب الآمال، ويقدّم لوالد الفتاة، بمثابة هدايا زواج قيّمة، شهرةً واسعة أكسبَتْه إيّاها خُطَبُه البليغة

(٧) قد تكون الكواكب السيّارة نفسها.

التي كان يبرع في إلقائها والدفاع فيها عن حقوق المقهورين. ولكنَّها غيرة (القدَر) قد عبثت بآماله وذهبت بحياته في شباب يُؤسف له.

قرار التَّبتُّل

٥. لم تكن الفتاة تجهل قرار والدها؛ ولكن عندما أطاح الموتُ بما قُرِّر في شأنها، عدّت قرار أبيها زواجًا، كما لو كان ذلك القرار قد تحقّق، وصمّمت على أن تعيش لذاتها، وكان تصميمُها فوق ما كان يُنتظر مَن فتاةٍ بهذه السّنّ. وكثيرًا ما كان ذووها يتحدّثون معها في أمر الزّواج، وكان جمالها الفريد يَجتذبُ الطامعين في طلب يدها، وعددهم يتكاثر يومًا بعد يوم؛ فكان جوابها أنه من غير المعقول وغير الشرعيّ أن لا تقف عند الزّواج الذي عَقَدهُ لها والدها، وأن تُحمل على عقد زواج آخر، والزّواج في طبيعته واحد كما انّ الولادة واحدة، والموت واحد. وكانت تُشدّد على ان الذي اختاره لها ذووها لم يَمُت، ولكنّه – وهي على رجاء القيامة – «يحيا لله» (رو ٦ : ١٠)، وهو من ثمَّ مسافر وغير مَيْت، ومن غير الجدير بها ان تخون زوجًا في سفر، وان لا تكون له وفيّة.

ماكرينا ووالدتها

وفيما كانت تردُّ بهذه الحُجج من كانوا يحاولون إقناعها، رأت أنّ سبيلها الوحيد إلى الثبات على قرارها هو أن تُلازم والدتها ولا تنفصل عنها لحظةً واحدة، وكثيرًا ما كانت والدتها تقول لها انها حملت أبناءها الآخرين مدّة الحَمْل المعهودة، أمّا هي فكانت تحملها أبدًا، وكأنها

أبدًا محبوسة في حشاها. وإلى ذلك فكانت حياة الأمّ مع ابنتها حياة سهلة وذات فائدة، لأن العناية التي كانت تلقاها من تلك الابنة تفوق خدمة عدّة خادمات. وكاننت الواحدة للأخرى خير عون: هذه تُعنى بنفس ابنتها، وتلك بجسم أُمّها مقدّمة لها كل ما تحتاج إليه من خدمة، ومهيّئة لها بيديها في غالب الأحيان الخبز اليوميّ[٨]. ومع ذلك لم يكن هذا هو عملها الأهمّ، فكانت إذا فرغت يداها من العمل الليتورجيّ[٩] تتصرف إلى تهيئة غذاء أمّها، وكانت ترى ان مثل هذا العمل يتّفق ونوع الحياة الذي تحياه. وإلى ذلك فكانت تشارك أمّها في شتّى همومها، إذ كان لها أربعة بنين وخمس بنات[١٠]، وكانت تؤدّي الضريبة لثلاثة حكّام، فان أملاكها كانت قائمة في ثلاث ولايات[١١]. وإذ كانت هذه الحالة تقتضي من الوالدة اهتماماتٍ متنوّعة لكون الوالد قد توفّي[١٢]، فكانت ماكرينا تشاركها في أعمالها، وتُقاسِمها همومَها، وتخفِّف وطأة آلامها. وكانت ماكرينا، في رعاية أمِّها، تحافظ على حياتها الخاصة نقيّةً وبعيدة عن كل شائبة، وكانت عينا أمِّها توجّهاتها وتُشجّعاتها، وهي ترى في تلك الأمّ، وفي مَثَلها الرفيع ما يقودها إلى المثاليّة نفسها، أعني مثاليّة الفلسفة التي كانت تشدّها شيئًا فشيئًا إلى الحياة غير المادّية، الحياة المجرّدة من كلّ انحراف.

---

(٨) كان هذا العمل المتواضع من شأن الخدم.

(٩) كانت ماكرينا تشترك في الخدمة الليتورجيّة، وقيل انها كانت شمّاسة انجيليّة.

(١٠) الخلاف شديد في عدد أبناء أميليا والدة ماكرينا، وقد يكون الأصح انهم عشرة وان أحدهم مات في طفولته الأولى.

(١١) كانت هذه الولايات، على ما يبدو، البنطس، وكبّادوكيّة، وأرمينية.

(١٢) توفي والد ماكرينا نحو سنة ٣٤١.

باسيليوس

٦. ما إن انتهت الأمّ من تدبير شؤون أخوات ماكرينا، تدبيرًا يتّفق ورغباتهنّ، حتى عاد باسيليوس العظيم، شقيق مَن نتحدّث عنها، من المدارس التي تخرّج فيها على علوم البلاغة سنين طويلة[١٣]. وقد وجدتهُ شقيقته مزهوًّا شديد الزّهو بموهبته الخطابيّة، وحاقرًا جميع المناصب، ومترفّعًا على جميع أعيان الولاية وقُضاتها، فما عتّمت أن حوّلته إلى مثاليّة الفلسفة[١٤]، فزهد في الشهرة العالميّة، والمجد الذي طوّقته به بلاغته، وانتقل إلى هذه الحياة الشّاقّة، حياة الأعمال اليدويّة، مهيّئًا بفقره الكامل حياةً تسعى إلى الفضيلة في غير عائق[١٥]. ولكنّ حياة باسيليوس وأعماله السّابقة التي اذاعت اسمه في كل مكان تحت الشمس، والتي أخملت بشهرتها جميع من عُرِفوا بالفضيلة تستحقّ ان تُفصَّل وان تُولى الوقت الطويل. ولكن لِنَعُدْ إلى مجرى حديثنا.

تحويل البيت الأبويّ
إلى دير

٧. لقد زال كل ما يبرّر الحياة الماديّة فأقنعت ماكرينا أمّها بالإقلاع

---

(١٣) عاد باسيليوس من أثينة سنة ٣٥٥.

(١٤) اعترف باسيليوس ببعض تأثير كان لشقيقته عليه، ولكن غريغوريوس يغلو في الكلام على هذا التأثير، كما أشار إلى ذلك بعض المحقّقين.

(١٥) لقد استهوى الفقرُ باسيليوس، وزاده ميلاً إليه كلام السيّد المسيح الذي حثّ الشابَّ الغنيّ على بيع ما يملك وتوزيعه على الفقراء والمساكين إذا اراد ان يكون كاملاً؛ فرأى باسيليوس ان الفقر الاختياريّ طريق الى ما يصبو إليه.

عن مستوى الحياة التي كانت تحياها، وعن أساليب سيّدة المجتمع الراقي، والعزوف عن عادة استخدام الخدَم، للتمشّي على سيرة عامّة الناس، والاشتراك في حياة العذارى اللواتي تُحرّرهنّ من خدمتها وتُساويهنّ بنفسها، وتعدُّهنَّ أخواتٍ لها. وإنّي أرجئ الحديث قليلاً لكي أُورد بعض الأحداث التي يتجلّى فيها بالأكثر سموّ عواطف هذه العذراء.

نوكراتيوس:

حياته

٨. بين إخوة ماكرينا الأربعة، كان الثاني الذي يلي باسيليوس الكبير، واسمه نوكراتيوس[١٦]، يفوق الآخرين بمواهبه الطبيعيّة، وجماله، وقوّته، ورشاقته، ومهارته في كل شيء. في سنّ الثانية والعشرين ألقى في الجماهير محاضرة أبدى فيها من الحذق والعمق وامتداد الآفاق ما ملك على السّامعين ألبابهم. ومع ذلك فبوحي إلهيّ حقرَ كل ما كان لديه، وبوثبةٍ من وثبات تفكيره، تحوّل إلى حياة العُزلة والفقر، ولم يصطحب من متاع الدُّنيا إلاّ ذاته. وقد تبعه خريسافيوس، أحد خُدّامه، بدافع الصداقة ودافع انتهاج نهجه في الحياة. وكان نوكراتيوس يعيش منفردًا في مكان موحش إلى جانب إيريس، وإيريس نهر يجتاز البنطس، وهو ينبع في أرمينية نفسها، ويجري في مناطقنا، ليصبّ في البحر الأسود. وجد الشابّ، على مقربة من ذلك النّهر، مكانًا تغطّيه غابة كثيفة، غارقًا في جوف جُرف يُكلّل الجبل،

(١٦) من المرجّح ان نوكراتيوس ولد نحو ٣٣٠، وان عزلته دامت إلى سنة ٣٥٧.

فأقام فيه، بعيدًا عن ضوضاء المدينة، بعيدًا عن أعمال الخدمة الإمبراطوريّة، ومُرافعات المحاكم. وإذ تحرّر من كل ما يشوّش الحياة البشريّة راح يخدم بيديه بعض العجزَة المرضى المُعوزين، ويرى في ذلك ما يتّفق وطريقة حياته. ونظرًا إلى مهارته في شتّى أساليب الصّيد، راح يمارسها ليوفّر للعجزة قُوتهم اليوميّ، ويَرُوض جماح شبابه بالتّعب والمشقّة؛ وكان إلى ذلك شديد الانصياع لرغبات أمّه إذا طلبت منه أمرًا من الأمور. وهكذا كانت حياته لشبابه يَرُوضهُ بأعمال شاقّة، ولله بطاعة أمّهِ التي كانت توجّهه إلى الله بالعمل بوصاياه.

نوكراتيوس:

موته

٩. قضى نوكراتيوس خمس سنين على هذه الحال معتنقًا الحياة الفلسفيّة، ومقدّمًا لأمّه بهذه السّيرة وهذا السُّلوك سعادةً نفسيّة عظيمة، إذ إنّه كان ينظّم حياته بالقناعة وضبط النّفس، كما كان رضيًّا يبذل جهده في العمل بمشيئة من ولدَتْه. ولكنّ مُصيبةً نكباء، قد تكون من عمل عدوّ البشر، انقضّت على تلك الوالدة، وأغرقت الأُسرة في الحزن والألم. لقد سُلب نوكراتيوس الحياة فجأة، لغير علّةٍ كانت سببًا لموته، ولغير داعٍ من الدّواعي المعهودة التي تُودي بالحياة. في أحد أيّام صيدهِ الذي كان يستعين به لإعالة شيوخه العَجزة، حُمِل إلى البيت ميتًا، ومعه رفيقُه خريسافيوس. كانت الأمّ بعيدةً، على مسافة ثلاثة أيّام من مكان الحادث، وقد نُقِل إليها النّبأ. ومع ما كانت عليه من الفضيلة استطاعت الطّبيعة ان تتغلّب عليها؛ فانهارت نفسُها،

وانهالت عواطفها، وذهب صوتُها، وتغلّب الأَلم على العقل؛ ومن شدّة وطأة هذا النّبأ المُريع سقطت على الأرض سقوط رياضيّ أصيل بضربةٍ غيرِ مُنْتَظرَة[١٧].

وضع ماكرينا وأمّها في هذه النكبة

١٠. قدّمت ماكرينا العظيمة في هذه الشدّة دليلاً على سموّ فضيلتها. انها واجهت الألم بالعقل[١٨]، وتمالكت حانيةً على ضعف أمّها تعمل على انتشالها من غمرة حزنها؛ وبهذا الموقف الصُّلب والثابت قدّمت لنفس أمِّها درساً في الشجاعة. والأمّ كذلك لم يستبدْ بها الألم فلم تقع في ما هو زريٌّ وما هو من شأن النّساء كأن تصيح في وجه الشرّ، وأن تمزّق رداءها، وأن تنتحب وتُعْوِل من جرّاء ما أصابها، وتُطلق مراثيَ النّدب والنُّواح. إنها تحمّلت بهدوء سورات الطبيعة ولَجمتْها بتفكيرها وتحريضات ابنتها على مغالبة هذا المصاب. أجل، في تلك حال على وجهٍ خاص، تجلّت عظَمة نفس تلك العذراء، فانّ الطبيعة كانت تتلظّى بتلك النّيران نفسها، فهو أخوها، وأحبّ إخوتها إليها، اخترمه الموت على تلك الحال. وقد تعالت على الطّبيعة، وبأفكارها رفعت أمّها معها، وجعلتها تتغلّب على أوجاعها، إذ حملتها، بالمثلِ والسُّلوك، على الصّبر والتّحمُّل. و إلى ذلك فانّ حياتها، في نموّها المتواصل في الفضيلة، كانت تدعو أنها إلى ان تتغلَب عندها فرحة

---

(١٧) يرى البعض في هذا التشبيه أمرًا مُبتذلاً وغير مُستساغ.

(١٨) هذا الموقف الرّوائيّ أمام الشدّة كثيرًا ما نجده عند غريغوريوس وسائر الكبّادوكيّين في رسائل وخُطب التّعزية.

الصَّلاح الذي تلمسه عند ابنتها على الغَمّ الذي يحزّ في نفسها على الفقيد.

الحياة النّسكيّة في أَنّسي

١١. فعندما تحرّرت الأُمُّ من همّ تربية أبنائها، ومن واجب تعليمهم وتركيز وضعهم، وبعد الفراغ من توزيعها القسم الأكبر من المال والموارد عليهم في سبيل الحياة الماديّة، عند ذلك، على حدّ ما قلنا آنفًا، أصبحت حياة هذه العذراء دليلاً لوالدتها إلى هذا النوع من الحياة الفلسفيّة وغير الماديّة؛ فهي التي تجرّدت من جميع عاداتها، قادت أمّها إلى مشاركتها في مستوى التّواضع الذي بلغتهُ، وهيّأتها لأن تجاري فريق العذارى في حياتهنّ، فتكون واحدةً منهنّ في الطّعام، والمنام، وسائر وسائل العيش، لا طبقيّة بينهنّ ولا امتياز. وكان هكذا نظام حياتهنّ، وسموّ فلسفتهنّ، ونُبْل نهج سيرتهنّ، في سلوكهنّ ليلاً ونهارًا، بحيث يعجز الكلام عن وصف ذلك كلّه. وكنفوسٍ جرّدها الموتُ من جسدها وتحرّرت من هموم هذه الحياة، هكذا تجانبَتْ حياتُهنّ تلك الهموم، بعيدًا عَن تُرّهات العالم، وكان نظامها أشبه بنظام حياة الملائكة. لم يكن عندهنّ غيظٌ، ولا حسد، ولا ضغن، ولا غطرسة، ولا أيّ شيء آخر من هذا القبيل؛ وكُنَّ يتأبيّن كلَّ رغبةٍ في الأمور الباطلة، وكلَّ تطلُّبٍ للرِّفعة والمجد، وكلَّ طمعٍ وزهو، وكل ما أشبه ذلك. مُتعتهنَّ في العفّة، ومجدُهنَّ في أن لا يعرفهنّ أحد؛ ثَروتُهنَّ في أن لا يَملكْنَ شيئًا، في ان يَنْفُضْنَ عن أجسادهنّ غُبارَ كل

غنًى ماديّ. عَملُهنّ لم يكن أيًّا من الأعمال التي تشغل بال البشر في هذه الحياة إلاّ لمامًا، بل كان التأمُّل في الحقائق الإلهيّة، والصّلاةَ المتواصلة، والترنيمَ الدّائم للأناشيد موزَّعًا بالتّساوي على الوقت كلّه، نهارًا وليلاً، بحيث ان هذا كلّه كان شاغِلَهُنّ كما كان استراحَتَهنَّ بعد انصرافهنَّ إلى مُقتضياتِ الحياة[١٩]. أيّ كلام بشريّ يستطيع أن يبسط للعيون مشهد هذا النوع من الحياة عند أولئك اللواتي يجعلنَ الوجود على تخوم الطَّبيعة البشريّة والطَّبيعة اللاجسمانيّة[٢٠]؟ فبتحريرهنّ طبيعتَهنّ من الأهواء البشريّة أصبحنَ فوق الكيان البشريّ، وبوجودهنّ في جسدَ وفي صورةٍ معيّنة ذات قوى حسّاسة لَبِثنَ دون الطّبيعة الملائكيّة اللاجسمانيّة. وقد يجوز التجرُّؤ والقول بأنّ الفارقَ ضئيل، لأنهنّ، وإن كُنَّ في الجسد، لم ينزلِقْنَ، بسبب مماثلتهنّ للقوّات اللاجسمانيّة، إلى الأسفل مشدوداتٍ بثواقل الجسد؛ بل يعكس ذلك كانت حياتهنّ خفيفة ومترفَعة، تسير في الأعالي مع القوّات السّماويّة. لقد سلكْنَ هذا السلوك زمنًا طويلاً، وتزايدت مع الزّمن شعائرُ فضيلتهنّ، لأن فلسفتهُنَّ كانت على نموٍّ دائم نحو نقاءٍ أعظم، تغذوها الصّوالحُ التي كانت تكتشفها.

---

(١٩) يهمّ غريغوريوس أن يوضح حقيقة عمل ماكرينا ورفيقاتها، فهو التأمّل والصّلاة، وأمّا ما سوى ذلك فثانويّ ولا يقتضي من الوقت إلاّ قليلاً. وفي هذا كله تمشٍّ ورأيَ باسيليوس القائل ان العمل الماديّ والمِهَنيّ يحوّل الانسان عن التأمُّل.

(٢٠) بالتأمّل في الحقائق الإلهيّة ترتقي ماكرينا ورفيقاتها إلى مصف الملائكة، ويُصبحن من جماعة الملائكة.

بطرس السّيبسطيّ

١٢. كان لماكرينا أخٌ آخر اسمهُ بطرس[٢١] هو آخر مواليد أُمّنا، والمساعد الأكبر لماكرينا في تصعيدها نحو مثال حياتها الأسمى؛ وقد أُطلق عليه اسم الابن واليتيم معًا، لأنّ والده فارق الحياة يوم رأى هو النّور. وما إن فُطِم حتى تولّت أمره أُختُه التي نتكلّم عنها هنا، فاستعادته من حاضنته، وأخذت على نفسها الاهتمامَ به. وراحت تُنشّئه أكمل تنشئة، وتلقّنهُ، منذ طفولته، العلوم المقدّسة، غير تاركةٍ لنفسه فراغًا من شأنه أن يميل بها إلى التّرّهات. لقد كانت له الأب، والمعلّم، والمربّي، والأمّ، والمُرشد إلى كل خير، وجعلته، وهو بعدُ في طور الفتوّةِ الزّاهية، يندفع نحو مثاليّة الفلسفة السّامية. أضف إلى ذلك انه كان يمتلك مواهب طبيعيّة غنيّة، فكان حاذقًا في شتّى الأشغال اليدويّة، تعلّمها عن سليقة لا عن معلّم ومدرّب، وكان ينجح في أشغال يتطلّب تعلّمها وقتًا ومشقّة. كان يستخفّ بمتابعة الدروس المدنيّة، ولكنّه، بمواهبه الطّبيعيّة التي كانت توفّر له كل علم صالح، وبتتبُّعِهِ للمثال الأعلى الذي كان يجده في شقيقته، كان ينمو في الفضيلة نموًّا ليس دون نموّ باسيليوس الكبير فيها. هذا بالنسبة إلى حياته الخاصّة؛ أمّا بالنسبة إلى أمّه وأخته فقد أصبح منذ ذلك الحين السّندَ الوحيد في حياتها الملائكيّة. وحدث أن حلّت بالبلاد مجاعة

---

(٢١) يرجَّح أن بطرس وُلد ما بين ٣٤١ و٣٤٥؛ ولم ينل من الثقافة ما ناله أخواه باسيليوس وغريغوريوس، فكان رجل الثقافة الرّهبانيّة والنّسكيّة. عاش في أنّسي إلى سنة ٣٨٠، ورسم آنذاك أسقفًا على سبسطية تاليًا أخاه غريغوريوس، ولم تكن وفاته قبل ٣٩٢.

قاسية فتوافد الناس من كل مكان إلى حيث يقيمون تجذبهم شهرة الإحسان والتصدّق، وقد استطاع بكدّه أن يجمع من المساعدات ما حوّل الصّحراء إلى شبه مدينة بسبب وفرة الزّائرين طالبي المعونة.

وفاة الوالدة

١٣. بعد قليلٍ من الزّمن رحلت الوالدةُ إلى الله، في شيخوخةٍ جليلة[٢٢]، وبين أَذْرُع اثنين من أبنائها فارقت هذه الحياة. وانه يَجدر بنا أن نُورد الألفاظ التي باركت بها أبناءها، وانها وإن ذكرت أبناءها الغائبين، لكي لا يُحرَم أحد من البركة، فقد خصّت ابنَيْها الحاضريْنِ بصلاةٍ قدَّمتها فيها إلى الله. وكانا كلاهما إلى جانب سريرها من هنا وهناك، ويدُ كلٍّ منها بإحدى يديها، وقد توجّهت إلى الله بكلماتها الأخيرة قائلة: «إليك، أيها الربّ، أقدّم البواكير والعُشر[٢٣] من ثمرة آلامي. هذه بواكيري: هذه، بكري؛ وهذا آخِر أبنائي. لك قُدّمت هاتان التقدمتان على مقتضى الشّريعة، انها لك. فلتحلّ قداستُك على بواكيري وعُشري هذين – وكانت تُشير بهذه الكلمات إلى ابنتها وابنها. وانتهت حياتها بانتهاء كلمات بركتها. كانت قد أوصت ابنيها أن يجعلا

---

(٢٢) توفّيت والدة ماكرينا، على ما يبدو من هذا النص ما بين المجاعة ورسامة باسيليوس، أي سنة ٣٦٩؛ ويبدو من رسالة باسيليوس الثلاثين انها توفّيت سنة ٣٧١، وهذا التاريخ هو الأصحّ.

(٢٣) ارادت أميليا بذلك أن تبيّن أيضاً خضوعها لوصيّة أساقفة ذلك العهد الذين كانوا يطلبون من المؤمنين ان يقدّموا للهيكل بواكير ثمارهم وعُشْرَها. وهذه العادة يهوديّة في الأصل.

جسدها في تابوت أبيها؛ وقد عملا بما أوصتها به، وواصلا تصعيدهما في طريق الفلسفة الرَّفيعة، مُقاومَينِ الميول وكل ما يعمل على تغييب ذكر الله، ومُغرقَينِ في حياة البرّ والفضيلة.

رسامة بطرس ووفاة باسيليوس

١٤. في تلك الأثناء انتُخِب باسيليوس، الكبير في القدّيسين، ليكون على رأس كنيسة قيصريّة العُظمى[٢٤]، وقد دعا أخاه ليقوم بالخدمة الكهنوتيّة إلى جانبه. ورسمه كاهنًا بحسب نظام الليتورجيّا المقدّسة. ومع ذلك كانت حياتها تنمو في التقوى والقداسة، يساعدهما الكهنوت على التقدّم في الفلسفة. وبعد ثمانية أعوام رحل باسيليوس، ذو الشّهرة العالميّة، عن البشر إلى جوار ربّه، فكان رحيله مدعاة حزنٍ شديد في موطنه، وفي العالم بأسره. ولمّا بلغ ماكرينا في غربتها النّبأ الأليم، اشتدّ عليها الحزن، وكيف لا تشتدّ عليها وطأة الخسارة عندما تشتدّ وطأتها على أعداء الحقيقة أنفسهم؟ يُقال ان الذّهب يُصفّى في عدّة بوتقات حتى إذا انتقل من الأولى إلى الثانية سقط عنه ما يكون بعد عالقًا به، وإذا انتقل إلى الأخيرة صفا من كل مادّة غريبة؛ وهكذا ففحص الذهب يكون بإمراره في عدة بوتقات، وصفاؤه الكامل يكون عند خلوصه من كل تلوُّث. وقد جرى أمرٌ شبيهٌ بذلك في حياة ماكرينا، إذ مُنيت نفسها السّامية بضروبٍ من النكبات المتتالية لتظهر في أصالتها وثباتها: أولاً موت أخيها توكراتيوس، ثُم انفصالها عن أمّها، ثم وفاة باسيليوس

(٢٤) جرت رسامة باسيليوس أسقفًا سنة ٣٧٠، وبطرس كاهنًا سنة ٣٧١.

فخر الأُسرة كلّها. لقد لبثت ككميٍّ لا يُغلب، في ثباتٍ وصبرٍ لم تتغلّب عليها هجمات النّوائب.

زيارة غريغوريوس – حُلمهُ التّحذيريّ

١٥. لم يمضِ على هذا المصاب أكثر من تسعة أشهر حتى انعقدَ في أنطاكية مجمع أساقفة كان لنا فيه اشتراك. وقبل ان تنقضي على ذلك سنة عادَ كلٌّ واحدٍ إلى مقرّهِ، وأمّا أنا غريغوريوس فقد شدّتني الرّغبةُ إلى زيارتها، وكانت الشّدائد والاضطهادات قد حالت سنوات طويلةً دون زيارتي لها، وقد تحمّلتُ تلك الاضطهادات منفيًّا من وطني بسعايةِ الهراطقة؛ وعندما كنتُ أُراجع ذاتي في المدّة التي حالت فيها الاضطهادات دون مشاهدتي لها، كانت مسافة السنين تبدو لي طويلة: ثماني سنين أو ما يُقارِبُها. وإذ كنتُ قد قطعتُ القسم الأكبر من المسافة ولم يبقَ عليّ إلاّ مسيرة يوم[٢٥]، رأيتُ في الحُلُم رؤيا جعلتْني أترقّب مستقبلاً مُكفهرًا. تراءى لي أني أحمل بيديّ ذخائر شهداء، ينطلق منها بريق يشبه بريقَ مرآةٍ صقيلة معرّضة للشمس، بحيث انّ عينيّ قد عَشِيتا لشدّة هذا الإشعاع. تكرّرت هذه الرُّؤيا ثلاثَ مرّات في الليلة الواحدة، ولم أُدرك معناها الخفيّ بوضوح، وكنتُ مع ذلك أتوقّع لنفسي بعض الغمّ، منتظرًا ما ستُعْقبه الأَحداثُ ممّا يمكنّني من الحكم على هذه الرُّؤيا حكمًا صحيحًا. فعندما وصلتُ إلى قرب المكان المنعزل الذي كانت تُمارس فيه تلك (ماكرينا) حياتها الملائكيّة والسّماويّة،

---

(٢٥) استغرق السفر من كبّادوكيّة إلى أنّسي عشرة أيام. (الرسالة ١٩).

استخَبْرتُ أولاً أحدَ الخدَم عن وجودْ أخي، فقال انه انطلق منذ ثلاثة أيّام لملاقاتي، فقلتُ في نفسي انه سلك إلينا طريقًا غير التي سلكناها؛ فسألتُه عن ماكرينا العظيمة؛ وعندما قال لي انها مريضة حَثَثْت الخطى لآتي على ما تبقّى لي من الطريق لأنَّ قلقًا داخلني، ومستقبلاً قاتمًا تراءى لي وبعث في نفسي الخشية.

وصول غريغوريوس إلى أنّسي

١٦. لمّا وصلتُ إلى المكان وأُبلغَ إلى جماعة الإخوة في الدّير خبرُ وصولي خرج فريقُ الرّجال بأجمعه من الدّير للقائي: تلك كانت عادتُهم في تكريم من يُكبرون زيارته لهم. واصطفّت جوقة العذارى في نظام دقيق إلى جانب الكنيسة في انتظار دخولنا؛ وعندما انتهت الصّلاة ومُنحت البركة، وبعدما حنتِ العذارى رؤوسهنّ باحترام لتقبُّل البركة، وانصرفنَ إلى مقرّهنَّ لم يبق معنا أيّ واحدة منهنّ، فتمثّل لي أنّ مديرتهنّ ليست معهنّ، فقادني أحد الموجودين إلى المسكن الذي كانت ماكرينا العظيمة تُقيم تحت سقفه، وفتح لي الباب، فدخلتُ إلى ذلك المكان المقدّس. كانت ماكرينا تحت وطأة مرضٍ شديد، وكانت مع ذلك مُسْتلقية، لا على سرير أو بساط، بل على الحضيض، على لوح من خشب فوقه كيس، وتحت رأسها لوح آخر من خشب بمثابة مخدّة تشيل قفا الرّأس قليلاً في غير عناء.

اللقاء الأوّل

١٧. عندما أبصرتني قربَ الباب حاولت أن تجلس معتمدةً على كوعها، ولم يكن في وسعها أن تهرع اليّ بسبب الحمّى التي أذابت

قواها. ومع ذلك فقد استعانت بيديها على الأرض ونهضت بقدر ما استطاعت على مرقدها لكي تُكرمني بالنهوض للقائي، فأسرعتُ إليها وأخذتُ في يديّ بوجهها المائل إلى الأرض، ونهضتُ بها وأعدتُها إلى استلقاءتها السّابقة؛ فرفعت يدها إلى الله وقالت: «لقد أنعمتَ عليّ أيضاً بهذه النعمة، يا الله، ولم تحرمْني ما كنتُ أتمنّاه إذ حملتَ خادمَك على زيارة خادمتك». ولكي لا تزيدني غمًا كانت تحاول أن تخفف زفراتها، كانت تحاول، ما استطاعت، أن تُخفي ضيقة تنفسُّها، كانت تحاول بجميع الوسائل، أن تخلق جوًّا أوفر فرحًا، آخذةً هي نفسُها في بعض أقوال المُزاح، وفي طرح الأسئلة الفكِهة. وفي مجرى الحديث أُتي على ذكر باسيلـيوس الكبير، فانهارت نفسي من شدّة حزني، وأمَلْتُ وجهي إلى الأرض فيما كانت الدّموع تنهمر من عينيّ. أمّا هي فقد بقيت على انضباطها ولم تشاركنا في لوعتنا، وجعلت من ذكر القدّيس مُنطلقًا إلى فلسفة أعظم، وأخذت تتبسَّط في موضوعات جليلة، باحثةً في الطّبيعة البشريّة، مستجِليةً العناية الإلهيّة الكامنة في الشّدائد، ومتحدّثةً عن أمور تتعلّق بالحياة الآتية، كما لو كان الروح القدس يوحي إليها بما تقول، بحيثُ ان نفسي تفلّتت أو كادت تتفلّت من الطّبيعة البشريّة متأثّرةً بأقوالها، ومرتقيةً، بفعل حديثها، إلى داخل الأقداس السماويّة.

تشبيه بأيّوب

١٨. يُروى لنا، في تاريخ أيّوب، أنّ هذا الرَّجل، وقد أحرقت جسمَهُ كلّه خُراجاتٌ قائحةٌ من قروح كانت تُغطّيه من كل جهة، لم يسمح، بعقله وتفكيره، لشعوره أن يُسيطر عليه الألم والانكسار، ولم

يسمح، في غمرة أوجاع جسمه، لعمله الخاصّ أن يتوقّف، ولا لخطابه ان ينقطع عن معالجة أسمى الموضوعات؛ هذا ما كنتُ أراه في ماكرينا العظيمة. كانت الحُمّى تُذيب كلّ قوّتها وتقودها إلى الموت، وكانت هي ترطّب جسمها بندى روحها، وعلى مثال أيّوب تُطلق تلك الرّوح حُرَّةً في تأمّلِ الحقائق العلويّة، ولا تدعها فريسةً للضّعف والمرض. ولولا خوفي من الإطالة إلى ما لا حدَّ له لأوردتُ سلسلةَ أقوالها كاملةً، وبيّنتُ كيف ارتقت بكلامها إلى الفلسفة في موضوع النّفس، باسطةً لنا سبب حياتنا في الجسد، ولماذا يوجد الانسان، وما الذي يجعله قابلاً للموت، ومن أين يأتي الموت، وأخيرًا ما التحرير الذي ينقلنا من هذه الحياة إلى حياة جديدة؟ كانت تتحدّث في هذه الموضوعات، وكأنّ قوة الروح القدس كانت معها، فتبسط جميع القضايا بوضوح وحكمة، وكلامها يتسلسلُ بسهولة كالماء الذي يتدفّق من الينبوع ويجري في انحدار وبدون عائق.

استراحة غريغوريوس

١٩. عندما انتهت من حديثها قالت: «حان لك، يا أخي، أن تُنيل جسدك بعض الراحة بعد سفر لقيتَ فيه تعبًا شديدًا. وأما أنا فكانت راحتي الحقيقيّة في أن أُشاهدها وأسمع أقوالها السّامية، ولكن نزولاً عند رغبتها، وعملاً بروح الطّاعة لتلك التي كانت معلّمتي، انتقلتُ إلى إحدى الحدائق المجاورة حيث هُيّئ لي مكانٌ رفيهٌ استرحتُ فيه قليلاً في ظلّ كرمة. ولم يكن في إمكاني أن أتمتّع بهذا المكان المريح، ونفسي مضطربة تترقّب حدثًا ما مُؤلمًا. ما شاهدتُه بدا لي كشفًا عن معنى الرؤيا التي تراءت لي في الحُلم: المشهد الذي تجلّى لعينيّ كان

يحمل في الحقيقة بقايا شهيد قدّيس، بقايا «ميتة للخطيئة»[٢٦]. ومتألّقة «بنعمة الرّوح السّاكن فيها»[٢٧]. أوضحتُ ذلك لأحدِ الذين سمعوني قبلاً أتحدَّث عن حُلمي. وفيما كنّا نقيم على غمّ أشدّ أيضاً، وذلك أمر طبيعيّ، في انتظار أحداث أليمة، لا أدري كيف تنبّهت لحالتنا النّفسيّة، ففاجأتنا بأخبارٍ أشدَّ تفاؤلاً، وشجّعتنا على استرجاع ثقتنا، وعلى التمسُّك، في شأنها، برجاءٍ أوسع آفاقًا، فقد شعرت بتحسُّن. لم يكن ذلك إيهامًا لنا، وكان كلامها حقيقيًّا، وان كنّا إذ ذاك غير مدركين مدلوله. فكما أنّ عدّاءً، وقد سبق خصمَهُ وأصبح على قاب قوسين من طرف الملعب، وعلى مقربة من جائزة السَّبْق ومن إكليل الظّفر، يبتهج في ذات نفسه، كما لو كانت الجائزة في حوزته، ويُعلن نصره لمن كانوا بين النظّارة من مَحازبيه، كذلك كانت هي، وقد داخلها الشّعور نفسه، تُهيب بنا أن تُحيي في شأنها رجاءً يحملنا على التّفاؤل، هي التي كانت توجّه نظرها نحو «الجعالة العلويّة»[٢٨]، وتُرجع إلى ذاتها على نحوٍ ما كلام الرسول: «انّما يبقى لي إكليل البرّ المحفوظ لي، الذي سيَجزمني به في ذلك اليوم الربُّ الدّيّان العادل»[٢٩]، لأنّني «جاهدتُ الجهاد الحسن وأتممتُ شوطي، وحفظت الإيمان»[٣٠]. أما نحن، وقد بعثت فينا الاطمئنان تلك الأخبارُ السّارة، فقد أخذنا في تذوُّق ما هُيّئَ لنا من الطّعام: طبقٌ منوَّع وحافل بما يروق ويُمتع، وكانت ماكرينا العظيمة إلى هذا اليوم تشمل كل عمل بعنايتها واهتمامها.

---

(٢٦) رو ٦: ١١. (٢٧) رو ٨: ١١.
(٢٨) في ٣: ١٤. (٢٩) ٢ تيم ٤: ٨. (٣٠) ٢ تيم ٤: ٧.

لقاءٌ آخر

٢٠. عندما عدنا إلى زيارتها – وهي لم تدعنا نقضي الوقت على انفراد – أخذت تروي لنا ما كانت حياتُها منذ حداثتها، مُسلسِلةً جميع الأحداث بأسلوب السّرد التاريخيّ. وكانت تروي كذلك ما كانت تذكر من أحداث حياة ذوينا، ما سبق منها ولادتي، وما جرى في السّنوات التّالية. وكان الهدف من روايتها إسداء الشكر الى الله؛ وهكذا كانت تُبرز في حياة ذوينا، لا الشهرة بالغنى والمنزلة في عيون معاصريهم، بل محبّة الله للبشر التي أعلت شأنهم. جماعة والدنا جُرّدوا من مالهم لأنّهم اعترفوا بالمسيح؛ جدُّنا لأُمِّنا قُتل لأنّه هاجَ غضبَ الامبراطور، ووُزِّعت جميع ممتلكاته على ملاّكين آخرين؛ ومع ذلك فكانت موارد الأسرة، بفضل إيمانها، قد ازدادت إلى حدّ انه لم يكن من الممكن في ذلك العهد أن يُذكَرَ أحدٌ متفوّق عليها. وعندما قُسمت الثروةُ في ما بعد تسعة أقسام، وفقَ عدد الأبناء، ازدادت، بفضل البركة الإلهيّة، حصّة كل واحد، إلى حدّ ان ثروة كلٍّ من الأبناء فاقت ثروة الأبوين؛ ولكنّ ماكرينا أبَت أن تقبل نصيبها من المال الذي تقاسَمَهُ الإخوة والأخوات، وتمشّيًا مع الوصيّة الإلهيّة[٣١] أصبح كلُّه بين يدي الكاهن ليقوم بإدارته. كانت حياتها، بمعونة الله، حياة فضيلة بحيث انها لم

(٣١) لعلّ هذه الوصيّة هي ما نقرأه في ٤: ٣٥ من أعمال الرسل؛ وكان من عادة عصر ماكرينا ان يتخلّى الثريّ عن أمواله، اذا دخل الدّير وترهّب، ببَيْعِها ورصْد ثمنها لمشاريع البرّ والإحسان، أو بدفعها إلى وكيل الكنيسة أو الدير في سبيل توزيعها على الفقراء، أو في سبيل أيّ مشروع خيريّ آخر.

تتوقّف قطّ عن رفع كفّيها إلى الوصايا[٣٢]، ولم تعتمد قطّ على بشر، ولم تأتِها قطّ متطلّبات الحياة الكريمة من خدمة أو عطاء بشر؛ ولكنّها، وهي لا تغلق بابها أمام المُعتفين، لم تستدرّ أيدي المُحسنين، لأنّ الله، ببركاته، كان يُنمّي في الخفاء، كما تنمو الزُّرْعات، الموارد الضّئيلة التي كانت تكسبها بأشغالها، ويحوّلها إلى ثمارٍ غزيرة.

اعتبارات في شأن غريغوريوس

٢١. وفي ما يتعلّق بي رحتُ أروي لها خبر الصّعوبات التي وُجدتُ فيها، أولاً عندما أمر الامبراطور فالنسيوس يَنفْيي بسبب الإيمان[٣٣]، ثم عندما عمّت الفوضى العقائديّة الكنائس وجرّتني إلى مشادّات وصراعات. قالت: «ألن تكفّ عن تجاهل هبات الله؟ ألن تجد لنفسك علاجًا يُعالج فيها نكران الجميل؟ ألن تقارن حظّك بحظّ أبويك، وإن كنّا، في الحقيقة وفي نظر العالم، نستطيع الافتخار بكوننا من أصل شريف، ومن أُسرةٍ مرموقة[٣٤]. وقالت: إن والدنا كان يتمتّع، في زمانه، بشهرة واسعة في الثقافة، ولكن شهرته لم تتجاوز حدود محاكم المنطقة؛ ثم انه، وإن تفوق على الغير بقدرته العلميّة السّفسطائيّة، لم تتجاوز شهرتُه حدودَ البنطس، وكان مكتفيًا بشهرته في

(٣٢) مز ١١٨ : ٤٨.

(٣٣) أقال غريغوريوس من منصبه مجمع أساقفة أريوسيّين سنة ٣٧٥ بتهمة اختلاس اختلقوها اختلاقًا، ولم يعد إلى كرسيّه إلا بعد وفاة الامبراطور سنة ٣٧٨.

(٣٤) من تلك الأسرة قوّاد في الجنديّة، وذوو رُتب مدنيّة عالية، وأصحاب مركز عالٍ في القصر الامبراطوريّ، وخطباء بلغاء، وأثرياء ذوو شهرة...

وطنه؛ وقالت: وانت الشهير في المُدن، والشعوب، والأقاليم، أنت الذي توفدُه الكنائس، ويدعوه آخرون لمدّ يد العون أو توطيد النّظام، ألا تُبصر النّعمة التي وُهبْتَ؟ ألا ترى من أين تأتيك هذه المواهب العظيمة، وان صلوات ذويك هي التي بلغت بك إلى هذا المقام الرفيع، وأنّك في ذاتك ومن ذاتك لا تملك ما يرقى بك إلى كل ذلك؟»(٣٥).

استعدادات ماكرينا ليومها الأخير

٢٢. فيما كانت آخذةً في هذا الحديث كنتُ أنا أتمنّى أن يطول النّهار حتى لا تتوقّف عن إمتاعِنا بهذه الأقوال العذبة؛ ولكنّ تشيد الخورص دعا إلى صلاة المساء، فوجّهتني ماكرينا العظيمة إلى الكنيسة، وأوت هي إلى الله بالصّلاة. حلّ الليلُ على تلك الحال، ولمّا أقبل النهار ظهر لي عندما رأيتُها ان هذا النهار الذي أطلّ سيكون نهارها الأخير، النهار الأخير في حياتها بالجسد، فالحمّى أذابت قواها الطّبيعيّة إذابةً كاملة. وإذ لمحت هي ان الضعف تسرّب إلى نفوسنا حاولت أن تخفّف عنّا وطأة الوَيْل الدّاهم، وتبدّد غياهب حزننا النفسيّ بكلمات حافلة بالعُذوبة والسموّ، ولكن بنفَسٍ متقطّع وقصير. ولدى هذا المشهد تنازعت نفسي عواطف واعتبارات مختلفة: من جهة، كانت الطّبيعة فيّ رازحة تحت وطأة الحزن، ولا غروَ من ذلك، لأنني كنت أتوقّع أن أُحرم من سماع هذا الصوت عمّا قريب، وكنت

(٣٥) في هذا القول ما يقترب من أقوال باسيليوس التي أخذ فيها على أخيه سذاجته وقلّة خبرته في الأمور الكنسيّة (الرسالتان ٥٨ و٢١٥).

أتوقّع أن يغادر الحياةَ قريبًا فخرُ أسرتنا كلّها؛ ومن جهة أخرى كانت نفسي، في غمرة ما شاهدت وما سمعت، ترى ان ماكرينا تجاوزت بسموّ روحها الطّبيعة البشريّة العامّة. فأن لا يجد الإنسانُ، في ساعاته الأخيرة، أيّ غرابةٍ في انتظار الموت، وأن لا تُخيفه مفارقةُ الحياة، بل أن يستغرق حتى النَّفَس الأخير، مع تفهُّم سامٍ، في التأمُّل والتبحُّر في ما اختاره من طريقة العيش على هذه الأرض، هذا ما بدا لي غريبًا عن الحقائق البشريّة. كان الأمرُ كما لو أنّ ملاكًا اتّخذ، برعاية الله، صورةً بشريّة، ملاكًا لا يربطه رابطٌ بالحياة في الجسد، ولا له أيّ علاقة بها، ولم يكن من المستغرب ان يظلّ تفكيره في نطاق اللامبالاة، لكونه غير معرّض لأن يجرّه الجسد نحو ميوله الخاصّة. وكان يبدو لي بوضوح، كما يتّضح لجميع الحاضرين، أنها تُبدي هذا الحبّ الإلهيّ الصّافي للعريس غير المرئيّ، الحبّ الذي نمّته في الخفاء في أعماق نفسها، وتُعلن رغبتها التي كانت تُحيي قلبها، في أن تُبادر إلى محبوبها، لتكون معه في أسرع وقت ممكن، بعد تحرُّرها من قيود الجسد. كان سعيها في الحقيقة موجّهًا نحو من يُحبّها، بدون أن يحوّل نظرها عنه أيّ جاذب من جواذب الحياة[٣٦].

الساعات الأخيرة

٢٣. مضى القسم الكبير من النهار، ومالت الشّمسُ إلى المغيب. لم تفتر تقواها، بل كانت كلما اقتربت من الرّحيل، يَشتدّ إسراعها لملاقاة

(٣٦) نظريّة غريغوريوس الروحانيّة تتلخّص في ان النفس إذا تحرّرت من رباط الأهواء المنحرفة، لا يستطيع شيء ان يعوقها عن تأمّل الجمال؛ والجمال من طبيعته جذّاب يجذب من ينظر إليه.

الحبيب، وكأنّها تزدادُ مشاهدةً لجمال العريس. لم تعُد تتوجّه إلينا نحن الحاضرين، بل كان همُّها كلّه في من أثبتت عليه ناظريها. وقد أداروا فراشها نحو الشّرق، وكانت قد توقفت عن الكلام لكي لا تتحدّث إلاّ مع الله بالصلاة؛ كانت تبسط نحوه يديها متوسّلةً، ومُتمتمةً بصوتٍ منخفض لم نكَدْ معه نسمع ما تقول؛ واني أورد هنا صلاتها لكي لا يشكّ أحد في انها كانت لدى الله، وانه كان يسمعها. كانت تقول:

صلاة ماكرينا

٢٤. «يا ربّ، أنت، الذي أبطلتَ من أجلنا الخوفَ من الموت[٣٧].

أنت الذي جعلتَ من أجلنا نهايةَ الحياة على الأرض ابتداءَ الحياة الحقيقيّة.

أنت الذي تدع أجسادنا تستريح لفترة من الزمان في رقاد، ثم تعود فتُنهضها على صوت البوق الأخير[٣٨].

أنت الذي تُعيد إلى التُّراب ترابنا الذي جبلتَهُ بيديك، وتعود فتُحيي ما أعدته إليه، محوّلاً، بعدم الموت والجمال، ما فينا من مائت وقبيح[٣٩].

أنت الذي انتشلتنا من اللعنة والخطيئة، بصيرورتك من أجلنا هذه وتلك[٤٠].

---

(٣٧) عب ٢: ١٥. (٣٨) ١ كو ١٥: ٥٢.
(٣٩) ١ كو ١٥: ٥٨. (٤٠) غلا ٣: ١٣، و٢ كو ٥: ٢١.

أنت الذي سحقتَ رؤوس التنْين[٤١] الذي قبض على الانسان بفيه وجَرّه إلى مهاوي العصيان.

أنت الذي فتحتَ لنا طريق القيامة بعدما حطّمتَ أبواب الجحيم[٤٢]، وأَبَدْتَ من كان له سلطانُ الموت[٤٣].

أنت الذي أعطيت من يخافونك شعار الصليب المقدّس، لكي يبيدوا العدوّ ويهَبوا حياتنا الأمنَ والسّلام.

أيّها الإله الأزليّ،

الذي إليك أُلقيتُ من بطن أمّي[٤٤]، أنت الذي أحبَّتْك نفسي بكل قوّتها، الذي قدّمتُ لك نفسي وجسدي منذ حداثتي وإلى هذه الساعة،

اجعل إلى جانبي ملاكًا نورانيًا يقودني بيده إلى مكانٍ رطيب أجد فيه مياه الرَّاحة[٤٥] في أحضان الآباء القدّيسين[٤٦].

أنت الذي حطّمتَ بريق سيف النّار[٤٧]، وأعدتَ إلى الجنّة الرَّجُلَ الذي صُلب معك والذي اتّكل على رحمتك[٤٨].

اذكُرْني أنا أيضاً في ملكوتك[٤٩]. لأنّي أنا أيضاً صُلبتُ معك[٥٠]، انا الذي سمّرتُ جسدي بمخافتك، والذي خشيتُ أحكامك[٥١].

---

(٤١) مز ٧٣: ١٤. (٤٢) مز ١٠٦: ١٦، ومتى ١٦: ١٨.
(٤٣) عب ٢: ١٤. (٤٤) مز ٢١: ١١. (٤٥) مز ٢٢: ٢.
(٤٦) لو ١٦: ٢٢. (٤٧) تك ٣: ١٤. (٤٨) لو ٢٣: ٤٣.
(٤٩) لو ٢٣: ٤٢. (٥٠) غلا ٢: ١٩. (٥١) مز ١١٨: ١٢٠.

لا تفضلِني الهوّةُ الرّهيبةُ عن مُختاريك[٥٢].

لا يقفْ ابليس الحسودُ حاجزًا في طريقي.

واذا كنتُ قد انزلقُت بسبب ضعف طبيعتنا فخطئتُ بالقول أو بالفعل أو بالفكر، فلا تكن خطيئتي بارزةً أمام عينيك.

أنت الذي لك على الأرض سلطان مغفرة الخطايا[٥٣] اصرِف طَرْفَك عنّي فأتنفّس[٥٤] حتى إذا خلعتُ عني جسدي[٥٥] أكون أمام وجهك خالية من كل كلفٍ أو غَفْن[٥٦] في صورة نفسي، ولتكن نفسي بين يديك بلا لوم ولا دنس، كبخور أمامك[٥٧].

وفاة ماكرينا

٢٥. كانت تفوه بهذه الكلمات عندما رسمت إشارة الصَّليب على عينيها، وفيها، وقلبها. جفّفت الحمّى لسانها شيئًا فشيئًا، ولم يعد في إمكانه التّلفّظ بالكلمات بوضوح، وغاب صوتُها، وبحركات شفتيها ويديها عرفْنا انّها تصلّي. وإذ كان الظلام قد انتشر أتى أحدهم بسراج، ففتحت ماكرينا عينيها، ووجِّهت نظرها نحو ضوئه، مُظهرة بذلك رغبتها في تلاوة صلاة شكر النّور[٥٨]، ولكنّ صوتها لم يُسعفها، فصلّت في قلبها وحقّقت رغبتها بحركات يديها، وعبّرت بحركة شفتيها

(٥٢) لو ١٦: ٢٦.　(٥٣) متى ٩: ٦.　(٥٤) مز ٣٨: ١٤.

(٥٥) كول ٢: ١١.　(٥٦) أف ٥: ٢٧.　(٥٧) مز ١٤٠: ٢.

(٥٨) عادة قديمة لصلاة الفرض المسائيّ التي كانت تُقام على ضوء السُّرُج.

عن اندفاعها الدّاخليّ. عندما انهت صلاة الشكر ورفعت يدها إلى وجهها لترسم إشارة الصّليب تنهّدت تنهّدةً عالية وعميقة، وأنهت بها صلاتها وحياتها. وعندما توقّفت عن التنفّس والحركة تذكّرتُ الوصايا التي أوصَتْنيها منذ لقائنا الأوّل، فقد أوصتني أن أُغمضَ عينيها بيدي، وأقوم لجسمانها بما ينبغي، فمددتُ يدي التي شلّها الألم إلى وجهها، لكي لا أخالف وصيّتها، وإذا عيناها بلا حاجة إلى عناية: كانت الأجفان تُغطّيها بلين وكأنّها في نوم طبيعيّ؛ وكانت شفتاها مُطبقتَيْن ويداها مُلقاتَيْن على صدرها كما ينبغي؛ كان جثمانها كله على وضعٍ مُتناسق لا يحتاج إلى أيّ عناية.

تفجّع العذارى

٢٦. كانت مشقّةُ نفسي مزدوجةً: ههنا أمام عينيّ مشهد الموت، وحواليّ نشيج العذارى الكئيب. لقد لزمنَ الهدوء حتى الآن، وكتمنَ غمَّهُنَّ في نفوسهنّ، وحبَسْنَ زفيرهنّ في صدورهنّ رعيًا لحرمة ماكرينا، كما لو أنّهن خشين لوم وجِهها، ووجهها أصبح صامتًا. كنّ يتوقّين أن يتصاعد من بينهنّ صراخ يخالفنَ به رغبة سيّدتهنّ ويكون لها منه انزعاج. وكما لو أنّ نارًا تـلتهم في الدَّاخـل نـفوسهنّ، وبما أنَّ الألم استعصى على الصّمت، علا فجأةً صراخٌ حادٌّ لا يُقاوم بحيث اني فقدتُ السّيطرة على قواي العقليّة، فكأنّ سيلاً من الألم تفجّر وذهب بها، فأهملتُ ما بقي عليَّ عملُه، استسلمتُ بجملتي للنّحيب؛ وبدا لي أنّ تفجُّع العذارى كان لسبب صوابيّ ومعقول. لم يكن بكاؤهنّ لفقدان علاقة ما، أو رباطٍ بشريّ، أو لأيّ أمرٍ آخر ممّا يُحزن النّاسَ

في نكبتهم، بل كُنّ كمن فُصِلْن عن رجائهنّ في الله، وعن خلاص نفوسهنّ، فيَصِحْنَ ويتفجّعن قائلات: «لقد انطفأ النّور في عيوننا؛ وانتُزع الضّوءُ الذي كان يقود نفوسنا؛ لقد فَقِدنا سلامة حياتنا، وسُلِبْنا ختمَ عدم الموت، وحُلَّ رباطُ وِفاقنا؛ لقد انحطم عماد عديمات الشجاعة، وغابت السّاهرة على الضعيفات. معكِ كان ليلُنا متلألئًا كالنهار بسيرتك الطّاهرة، والآن تحوّل النهار نفسه إلى ظلام». كان بعضُهنَّ يَدْعونها أمًّا وعائلة، ويعبّرنَ عن ألم أشدّ من ألم الأُخريات: إنّهنَّ أولاءِ اللواتي آوتْهُنَّ إبّان المجاعة. عندما كُنَّ يَهِمْنَ على وجوههنّ، وقدّمت لهنّ الغذاء والتربية، ووجّهتْهُنَّ نحو حياة النّقاوة البريئة من كل فساد.

غريغوريوس يدعوهنّ إلى الهدوء

٢٧. بعدما انتشلتُ نفسي من الهوّة التي غرقت فيها وجّهتُ نظري نحو هذه القدّيسة ووجدتُني مسؤولاً عن الفوضى التي رافقت تفجُّعات العذارى ومراثيهُنَّ، فصحتُ فيهنّ بصوتٍ شديد قائلاً: «انظُرْنَ إليها، واذكُرنَ الدّروس التي علّمتكُنَّ بها كيف يجب التصرُّف في كل حال من الأحوال. هذه النفس الإلهيّة أقامت لكنَّ وقتًا للدّموع عندما أمرتكنّ بالبكاء في وقت الصّلاة. هذا ما يمكنكنّ عمله منذ الآن بتحويلكنَّ نشيجَ الشكوى إلى ترتيلٍ جماعيّ». فهتَ بهذه الكلمات بصوتٍ عالٍ لكي أُغطّي ضجيج الشّكاوى؛ ثم طلبتُ منهنّ أن ينتقلنَ إلى مكان مجاور، ما عدا اللواتي كانت تتقبّل منهنّ الخدمة في أثناء حياتها.

حوار مع ڤاتيانا

٢٨. كانت بينهنّ امرأة ذات امتياز بثروتها ونسبها اشتهرت في شبابها بجمالها وأناقتها. تزوّجت برجلٍ ذي نُبْلٍ، وساكنته فترةً من الزّمن؛ ثم انحلّ رباطُهما وهي في رونق شبابها، فلجأت إلى ماكرينا العظيمة، واتّخذتها حارسةً وموجّهة لترمُّلها. وكانت تقضي معظمَ وقتها في صحبة العذارى، لتأخذ عنهنّ الحياة الفاضلة. كان اسمها فاتيانا، وكان والدها أراكسيوس عضوًا في مجلس الشيوخ. قلتُ لها انه من الموافق الآن ان نهتمّ لجثمان المَيْتة، فنُلبسه لباساً أفضل، وأن نَزين هذا الجسد الطاهر والبريء من كل فساد، بثيابٍ زاهية. فأجابتني انه من الواجب أن نتساءل عمّا كانت القديسة تراه مناسبًا في هذه الحال، اذ انه من غير الموافق ان نسير على غير ما يروقها؛ وما يروق الله تمامًا ويُرضيه يروقها هي أيضاً ويُرضيها.

حوار مع لمباديون

٢٩. وكانت هنالك واحدة من اللواتي يُدِرن جوقة العذارى، وهي شمّاسة انجيليّة باسم لمباديون كانت تقول انّها على علم تامّ بما أقرّته ماكرينا لدفنها، وقد حضرت الاجتماع وسمعت حديثنا، وعندما سألتُها أجابتني بدموع: «الزّينة التي اهتمّت بها القدّيسة هي الحياة الطّاهرة؛ هذه هي زينة حياتها وكفن موتها؛ أمّا ما تقتضيه زينة الجسد فلم تُعِره اهتمامها ولم تدّخِر له شيئًا في حياتها، بحيث إنّنا لو أردنا ذلك لم نجد سوى ما نراه هنا أمام أعُيننا – فقلتُ: ولكن أليس من الممكن

أن نجد في مدّخراتها ما يُتيح لنا أن نزيّن مضجَعها الجنائزيّ؟ — فقالت: «أيّ مدّخرات؟ لديك كل ما كانت تدّخرهُ. هوذا معطفها، وقناعُ رأسها، والحذاءان الرّثان اللذان تنتعلُها. هذه هي ثروتها، هذا هو غناها. ليس لها غير ما تراه هنا ممّا يُخبأ في الخزانات، أو في ناحية منعزلة من الغُرَف السرّيّة. لم تكن تعرف إلاّ مكانًا واحدًا تكنز فيه ثروتها الخاصّة هو الكنز السماويّ. لقد جمعت فيه كل شيء، ولم تترك شيئًا على الأرض». — فقلت: «في هذه الحال هل يكون مخالفًا لإرادتها إذا قدّمتُ انا نفسي شيئًا ممّا أعددتُه لدفني؟». فأجابت ان ماكرينا، في رأيها، لم تكن لتُنكرَ ذلك. «لو كانت بعدُ على قيد الحياة لَقبلت منك هذا الشرف، لكونك تحمل سمة الكهنوت الّتي أجلّتها دائمًا، ثم لكونك نسيبًا لها، وما يأتيها من أخيها لا تعدّه شيئًا غريبًا عنها. ولهذا طَلبتْ ان يُهيّأ جثمانُها بيديك».

صليب ماكرينا وخاتمها

٣٠. بعدما تمّ الاتّفاق على كل شيء، وكان الأمرُ يقضي بأن يُكسى جسمها المقدّس بنسيج ناعم، تقاسمنا العمل، فكان على كل شخص ان يقوم بمهمّةٍ ما. أمّا أنا فقد طلبتُ من أحد خُدّامي أن يأتي بالثّوب. وكانت فاتيانا التي أتينا على ذكرها تزين القديسة بيديها، وعندما لامست عُنقها قالت، وهي تنظر إليّ: «هوذا العقد الذي تلبسه القدّيسة»؛ ثم فكّت رباطه من الوراء، ومدّت يدها وأَرتني صليبًا من حديد، وخاتمًا من المعدن نفسه، مُعلّقَين بخيط رفيع ولا يفارقان صدرها وقلبها؛ فقلتُ لها إذ ذاك: «فليكن هذا المُقتنى مشتركًا

في ما بيننا: احتفظي أنتِ بحراسة الصّليب، وأنا أكتفي بالخاتم». وكان على الخاتم صليب أيضاً قد حُفِر بإتقان: فنظرت إليّ المرأة وقالت: «لقد أحسنت الاختيار لأنّ في مكان الفصّ تجويفًا يحتوي جزءًا من عود الحياة، وهكذا فالصّليب المحفور في الخارج يدلّ على ما في الدّاخل».

معجزة لماكرينا

٣١. عندما آن وقتُ إلباسِ هذا الجسدِ الطّاهرِ الثَّوبَ كانت وصيّة ماكرينا العظيمة تحمّلني واجبَ القيام بهذا العمل. وكانت شريكتي في هذا الإرث العظيم تعضدني في ما أقوم به من عمل؛ وقد قالت لي: «يجب أن لا تلبث جاهلاً لأعظم معجزةٍ قامت بها هذه القدّيسة». — قلت: «ما هي؟» فكشفت عن قسم من ثدي ماكرينا وقالت: «هل ترى هذا اللطخَ الذي يكاد أن لا يُرى تحت الجلد؟ كأنّي به أثر محزّز صغير». وفيما كانت تفوه بهذا الكلام أدنت القنديل من المكان الذي كانت تشير إليه. فقلتُ لها: «واين المعجز في أن يحمل جسمُها، في هذا المكان، مثل هذا الأثر؟» فقالت: «هذا الأثر بقي على جسمها للتذكير بما مدَّها به الله من عون عظيم. في أحد الأيّام تضخّم في هذا المكان ورمٌ مؤلمٌ جدًّا، وكان من الخطر بضعُ هذا الورم أو تَرْكه ينمو ويمتدّ إلى منطقة القلب. وكثيرًا ما ألحّت عليها أُمُّها وتوسّلت إليها ان تقبل معاينة الطبيب، إذ ان فنّ الطبّ من هبات الله لخلاص البشر. ولكنها رأت انه شرٌّ من مرضها أن تعرض لأعْيُنِ الغير قسمًا من جسدها. وفي مساء أحد الأيّام، بعدما فرغت من الخدمة التي كانت تؤدّيها بيديها لأمّها،

دخلت الكنيسة، وأمضت الليل كله ساجدةً أمام الله، إله الأشفية، وقد انهمرت دموعها وانتشرت على الأرض، فاتخذت من الوحل المجبول بدموعها علاجًا لعلّتها. وعندما عادت الأمّ إلى الالحاح عليها بمعاينة الطبيب قالت لها انه من الكافي لشفائها ان ترسم أمّها بيدها على موضع علّتها إشارة الصليب؛ وعندما وضعت الأمّ يدها على الثّدي لترسم على قسمه العليل إشارة الصليب، فعلت الإشارة فعلها العجيب وزال الورم. ولكن ظهر هذا الأثر الصّغير في مكان الخُراج الرَّهيب، وظلّ ثابتًا ليذكّر، على ما أظنّ، بالتدخّل الإلهيّ وبواجب الشّكران الدائم لله.

زينة ماكرينا

٣٢. بعدما انتهى العمل وقُمنا بتزيين الجُثمان على قدر ما استطعنا رأت الشمَّاسةُ الانجيليّة انه من غير الملائم ان ترى العذارى ماكرينا في زينة العروس؛ وقالت: «لديّ معطف بلون عاتم أهدتني إياه والدتُك، وأرى انه من الملائم ان نبسطه عليها لكي لا يكون ألَقُها ألقَ ثوبٍ عارض، بل ألق جمالٍ مقدّس». كان الرَّأيُ حكيمًا، فبُسط المِعطف على الجُثمان». ولكنها، وإن بُسط عليها هذا الثوب العاتِم، كانت تتألّق، وكانت القدرة الإلهيّة تُضيف إلى جثمانها نعمةً بحيث يبدو ان نورًا ساطعًا كان يتدفّق من جمالها، تمامًا كما في الرؤيا التي تراءت لي في الحُلم.

ترتيل المزامير حول الجثمان

٣٣. فيما كنا منهمكين في هذه التحضيرات، وترتفع حوالينا

المزامير ترتّلها العذارى ممزوجةً بالآهات والزّفرات، لا أدري كيف انتشر فجأةً نبأُ وفاتها في كل مكان من المنطقة المحيطة بنا، فأخذ جميعُ سُكّان الجوار يتقاطرون بأعداد كبيرة ضاق بها مكان المأتم. قضينا الليل كله حواليها نُنشد الأناشيد على نحو ما يجري في تأبين الشُّهداء. وعندما أطلّ الفجر أخذ جمهور الرّجال والنساء الوافدين من جميع النواحي المجاورة يزفرون ويُعْولون مشوّشين التراتيل. وفي ما هو من شأني، فإنّي، وان كانت الصَّدمةُ قد حطّمت نفسي، أخذتُ أفكّر، ما استطعتُ، في كل ما تقتضيه جنازة كهذه، غيرَ مُغفل أيّ شيء ممّا يليق بها. فصلتُ، في الشعب المتقاطر، الرّجال عن النّساء، وضممتُ جمهور النساء إلى جوقة العذارى، وجمهور الرجال إلى فريق الرّهبان، وعملتُ على أن يكون الترتيل المتصاعد من هؤلاء وأولئك موحّدًا، وحسن التّوقيع والتّناسق، كما لو كان ذلك في ترنيم خورص، فلا ينشز صوت، ولا يخرج أحد عن اللحن الجماعيّ المشترك. وعندما تقدّم النّهارُ بعض التقدّم، وكانت الأماكن المحيطة بهذه العزلة لا تستوعب جمهور الوافدين، عرض أراكسيوس أسقف المكان – وكان حاضرًا مع كلّ إكليروسه – أن يتقدّم الموكب الجنائزيّ على مهل، مشيرًا إلى ان الطّريق التي يجب ان تُسلك طويلة، وأن الجمهور الكثيف يحول دون العمل السّريع؛ وفي الوقت نفسه أوعز إلى جميع كهنته أن يحملوا هم أنفسهم الجثمان.

الموكب الجنائزيّ

٣٤. بعدما اتُّخِذت هذه القرارات وأُخِذ في تنفيذها، اتّخذتُ أنا مكانًا أمام المِحْمل، ودعوتُ أراكسيوس إلى الجانب الآخر، أمّا في

الوراء فوقف إكليريكيّان من ذوي الرُّتب العالية. فتحتُ الطريق بهدوء تمشّيًا ومُقتضى الحال، وسِرْنا بخُطى متّئدة. كان الشعب يزدحمُ حول المحمل، ويزاحم بعضُه بعضاً، والأنظارُ لا تكلُّ من تأمّل هذا المشهد، كان التقدُّم صعبًا بسبب كل ذلك كما كان مهيبًا ترى فيه عددًا كبيرًا من الشمامسة الإنجيليّين وممّن دونهم في الرُّتبة يعقب أحدهم الآخر في صفٍّ طويل، حاملين بأيديهم الشموع، كما لو كانوا في زيّاحٍ طقسيّ؛ وكانت التّراتيل المزاميريّة تُرافِق الموكب، من أوّلِهِ إلى آخره، وتُنافِسُ نشيد الفتيان الثّلاثة[٥٩]. كانت المسافة بين هذا المكان المنعزل وكنيسة الشّهداء القدّيسين، التي تحوي أيضاً رفاتَ ذوينا، سبعَ أو ثماني مراحل: بصعوبةٍ قطعنا هذه المسافة، وفي نهارٍ كامل تقريبًا، لأنّ الشعبَ الذي كان يُرافقنا ويزداد عددُه في غير انقطاع، لم يدع لنا مجالاً للتقدّم كما نشاء. عندما وصلنا إلى داخل الكنيسة أُنزل المحملُ، وارتفعتِ الصّلاة، ولكنها كانت للشعب ذريعةَ تلوُّع وانتحاب. وفي فترة توقُّفٍ للترَتيل، وقد أُخِذ بفتح ضريح ذوينا الذي كان مزمعًا ان يتلقّى جثمانها، تحوّلت العذارى بأنظارهنّ نحو الوجه المقدّس، وراحت إحداهنّ تصيح صياحًا شديدًا قائلةً، إنّهُنّ لن يَرينَ من بعدُ هذا الوجه الإلهيّ الصُّورة؛ فانضمّت إليها سائر العذارى ورُحنَ يصِحْنَ صياحها؛ فكان من ذلك أن عمّت الفوضى المكان، وشوّشت مسيرةَ الترتيل وطابعه المقدّس، لأن الجميع عندما سمعوا عويلَ العذارى انفجروا بالتنهُّد والنْشيج؛ وبالكثير من الجهد والحركات والاشارات طلبنا

---

(٥٩) طالع دا ٣: ٥٢.

الصمت؛ فدعا المُرنّم إلى الصلاة مطلقًا طلبات الكنيسة العاديّة، وعاد الشّعبُ إلى الهدوء والصّلاة[٦٠].

الدّفن

٣٥. عندما انتهت الصّلاة خامرني خوفُ مخالفة الوصيّة الإلهيته التي تحظر كشفَ سوءة الأب أو الأُمّ[٦١]. كنت أقول في نفسي كيف أنجو من مثل هذه الإدانة إذا كشفتُ سوءة الطبيعة البشريّة العامّة في جسمَي أبي وأمّي اللذين اهترأا وتحوّلا إلى شيءٍ لا شكل له، شنيع وكريه؟ وإذ كنتُ أفكّر في ذلك وفي خوفي من أن تمتدّ إليّ لعنةُ نوح لابنه[٦٢]، وجدتُ في قصّة نوح نفسها ما يجب أن أعمله[٦٣]. وقبل ان يظهر الجسمان أمام أَعْيُننا غُطّيا بكفنٍ جديد بُسط على الناووس من طرفه إلى طرَفه الآخَر عندما رُفِع الغطاء؛ وعندما غُطّي الجسمان هكذا بالكفن، رفعنا أنا والأسقف المزكور جثمان ماكرينا المقدّس من المحمل، ومَدَدْناه إلى جانب أُمّها، عاملَيْنِ بوصيّتها المشتركة، إذ انها كانتا، على مدى حياتها، تطلبانِ إلى الله ان يجتمع جسماهما بعد الموت، وأن لا يُحطّم الموت الأُلفة التي كانت بينها في حياتها[٦٤].

---

(٦٠) لا نستطيع الذهاب من هذا النص إلى ان الجنازة كانت مصحوبة بذبيحة الافخارستيّا على حسب ما كان يجري قديمًا.

(٦١) أح ١٨: ٧.

(٦٢) تك ٩: ٢٥.

(٦٣) تك ٩: ٢٣.

(٦٤) يُقال ان قبر ماكرينا الذي كان يحوي عظامها لا يزال موجودًا في كنيسة حُوّلت إلى جامع في هسكويا بآسية الصُغرى.

عودة غريغوريوس – لقاء

٣٦. بعد الانتهاء من كلّ ما يفرضه الواجب في الجنائز، وبعد التأهُّب لِلعَوْدة، جثوتُ على القبر وقبّلتُ التُّراب، ثم أخذتُ طريقَ العودة بنفسٍ محطّمة، ودموعٍ تنهمر، للخسارة التي مُنيتُ بها. وعندما وصلتُ إلى مدينة صغيرة في البنطس تُدعى سبستوبولس لاقاني جنديّ برتبة عالية كان على رأس حاميةٍ هناك[٦٥]، يُقيم هو وفرقته في المدينة، وقد تودّد لي وأظهر ألمًا شديدًا لما ألمّ بي – وكان على صلةٍ بأسرتنا وعلى مودّة شديدة لها –، وراح يروي لي قصّة معجزة أتت بها ماكرينا. واني لن أضيف إلى حديثي إلاّ هذه القصّة ثم أتوقّف عن الكلام. فعندما كفَفْنا عن البكاء وعُدنا إلى الحديث قال لي: «يا لها من خسارة خسرها الوجود البشريّ!» ثم أخذ في رواية الخبر العجيب قائلاً:

خبر زيارة إلى الدير – المعجزة

٣٧. «رغبنا في أحد الأيّام أنا وزوجتي، في أن نزور «مُنتَجع» الفضيلة: هكذا يجب، في رأيي، أن يُدعى المكان الذي كانت الطّوباويّة تقضي فيه حياتها. كانت معنا ابنتُنا الصغيرة وهي تشكو من ألم في عينها نالها عقبَ مرضٍ مُعْدٍ. كان مرآها دميمًا وباعثًا على

(٦٥) كانت في القرن الرابع حامياتٌ من الجند تقيم في الأقاليم الحدوديّة، وقد خفّض قسطنطين عددها. وان لم تكن ارمينية منطقة حدوديّة فانها كانت معرّضة لغارات البرابرة، وكانت بحاجة دائمة إلى حاميات من الجند تساعدها على التّصدّي لاعتداءاتهم.

الشّفقة، إذ ان قرنيّة العين قد تورّمت حول البؤبؤ، وبسبب المرض، غَشِيَها بعض البياض. عند دخولنا هذا المكان الإلهيّ انفصلنا، أنا لزيارة الرّجال، وهي لزيارة النساء، في خلوة الحياة الفلسفيّة. قصدتُ أنا دير الرّجال الذي كان يديرهُ شقيقُك بطرس، وقصدت هي دير العذارى لتواجه القدّيسة. بعد فترة من الزّمن رأينا أنه حان لنا أن نُغادر المكان. كنّا على أهبة الانطلاق عندما جاءتنا من الجهتَين مفاجأة صداقة ومودّة. دعاني شقيقك إلى الاشتراك في المائدة الفلسفيّة؛ واستَبْقت الطّوباويّةُ زوجتي، ولم تسمح لها بالخروج، وكانت تقول، وهي تُجلِس الطّفلة على رُكبتَيْها، إنها لن تصرفها قبل أن تُهيَّأ لها مائدة طعام، وقبل أن يُقدّم لها غِنى الفلسفة[٦٦]. ومن الطبيعيّ أنّها كانت تُلاطف الطفلة؛ وفيما كانت شفتاها تلامسان عينيها، أبصرت الحدَقة المريضة وقالت: «إذا أنعمت عليّ بأن أشترك في المائدة العموميّة أقدّم لكما في مُقابَل ذلك مكافأة جديرة بمثل الشّرف الذي أَنَلْتمانيهِ». فسألت أمّ الطفلة ما تكون تلك المكافأة. فقالت ماكرينا العظيمة: «لديّ دواء فَعّال يشفي أمراض العيون». فعندما عدتُ من دير النساء وأُبلغتُ الرِّسالة، أقمنا بكلّ سرور، ولم يَعُد همّنا في أن ننطلق.

٣٨. عندما انتهت الوليمة ونالت نفسُنا من الغبطة ما نالت – فقد

(٦٦) حافظنا في الترجمة على اللفظة «فلسفة» وما يشتق منها ويُنسب إليها ممّا راق لغريغوريوس استعماله؛ ومن الواضح انه كان بإمكاننا القول: «المائدة الرّهبانيّة»، و«غنى الحياة الرُّهبانيّة».

قدّم لنا بطرس العظيم خدمة الطّعام بيديه، وأبهج قلبنا، والقدّيسة ماكرينا استأذنت من زوجتي بكل لياقة - أخذنا طريق العودة بسرور. وكان حديثُنا على مدّ الطريق، عمّا جرى لنا. أما أنا فقد استعرضتُ كل ما شاهدتُه في جناح الرجال، وأمّا هي فقد راحت تفصّل خبر زيارتها، وكأنها تروي حدثًا تاريخيًا. لا تريد أن تُغفل منه شيئًا مهما كان ضئيلاً. وإذ كانت تروي سلسلة أخبارها في نظام، وصلت إلى حين وُعدت بدواء للعين، فقطعت روايتها لتقول لي: «ماذا جرى لنا؟ كيف نسينا الوعد الذي قطعتْهُ لنا، القطرةَ التي وعدتْنَا بها؟» آلمَنَي هذا الإهمال فدعوت أحد الموجودين ليُسرعَ إلى الدير ويأتي بالدّواء، حينذاك عرض للطفلة، وهي بين ذراعي مُرضعتها، ان تنظر نحو أمّها؛ وإذ حدّقت هذه بعينَي ابنتها صاحت بي قائلةً: «توقّف عن شكوى الإهمال!» - قالت ذلك بصوت شديد حافل بالفرح والدّهشة -. «انظُرْ: لم ينقصنا شيء مما وُعِدنا به، ولكنّ الدّواء الحقيقي الذي يشفي الأمراض، والذي ليس هو سوى العلاج بالصلاة، قد أُعطيناهُ، وقد عمل عملَهُ؛ ولم يبقَ أثرٌ للمرض في عينها التي طهّرها هذا الدواء الإلهيّ». وقد حملتِ الطِّفلة، وهي تقول ذلك، وألقَتْها بين ذراعيَّ؛ فتذكّرتُ المعجزات الواردة في الإنجيل، وقلت: «أين العجب في أن تعيدَ يدُ الله البصرَ إلى العميان، عندما تقوم خادمته بعمل يكاد ان لا يقلّ عن هذه المعجزات بشفائها الامراض نفسها بإيمانها به تعالى». وعندما كان يفوه بهذه الكلمات قطّعتِ الشّهقاتُ صوته، وانهمرت دموعه. هذا ما رواه لي الجنديّ.

خاتمة

٣٩. في ما يتعلّق بالأحداث المشابهة التي سمعنا روايتها والتي نقل أخبارها من كانوا يعيشون معها، ويعرفون دقائق ما يتعلّق بها، لا نرى ما يدعو إلى أن نُضيفها إلى ما رويناه؛ فان أغلب الناس يحكمون على صدق قولٍ من الأقوال وفقَ مقدار خبرتهم الخاصّة، وما هو فوق قدرة السّامع يهزؤون به، ويرمونه بالكذب، ويجرّدونه من كل حقيقة. لهذا لا أقول شيئًا عن غلّة زمن المجاعة عندما كانت الحبوب التي توزّع على المعوزين لا تنقص، بل تحافظ على كميّتها قبل توزيعها وبعده. لا أقول شيئًا عن أحداث أخرى أبعث على الذّهول: شفاء مَرْضى، طرد شياطين، إخبار حقيقي بأحداث ستجري في المستقبل. كل هذه الأمور يعدُّها من عرفوها بدقّة صحيحة، ولو ظهرت غير قابلة للتّصديق. ولكنّ الذين غرقوا في المادّة لا يقبلونها، أولئك الذين جهلوا انّ توزيع المواهب يجري وفاقًا للإيمان(٦٧)، فيكون لضعيفي الإيمان ضعيفًا، ويكون بعكس ذلك غزيرًا للذين يجعلون للإيمان مجالاً واسعًا في نفوسهم. ولكي لا ينالَ الضّررُ ضعيفي الإيمان والذين لا يؤمنون بمواهب الله أحجمتُ عن تعداد أهمّ معجزاتها، مقدّرًا ان ما ذكرتُه كافيًا لختام تاريخ ماكرينا.

(٦٧) رو ١٢: ٦.

مراجع

١. دراسات عامّة

BARDY (G), "Toute une famille de saints. Sainte Macrine et ses frères", Le Correspondant, 10 février 1937, p. 273 – 286.

BÉNÉDICTINS de PARIS (PP.), Vie des Saints et des Bienheureux, tome VII (juillet), Paris 1949, p. 444 – 448.

BOSCHIUS (P.) (= P. Van den Bossche), Act.SS. Iulii, tomus IV, 589 C – 604 F.

BOUVY (E.), "Sainte Macrine", Revue Augustinienne I (1902), p. 265 – 288.

ENSSLIN, art. "Macrinus" 9, PW, 27. Halbband, 168 – 169.

HALKIN (F.), Bibliotheca hagiographica graeca, 3e éd., Bruxelles 1957, nº 1012.

KLOEPPEL (M.), "Makrina die Jüngere, eine altchristliche Frauengestalt", in Th. Bogler, Frauen in Bannkreis Christi, Maria-Laach 1964, p. 80-94.

Loofs (F.), art. "Makrina die Jüngere", Realencyopädie für protestantische Theologie und Kirche, XII. Band, 93-94.

SAUGET (J. -M.), art. "Macrina la Giovane", Bibl. Sanct. VIII, col. 456 – 458.

SYNAXARIUM Ecclesiae Constantinopolitanae (Propylaeum ad Acta Sanctorum Novembris), ed. H. Delehaye, Bruxelles 1902, col. 829, 12 – 29.

VENABLES (E.), art. "Macrina the Younger", A Dictionary of Christian Biography (ed. by W. Smith and E. Wace, vol. III), London 1880, p. 779.

٢. حياة ماكرينا

CHORUS (A.), Het beeld van de mens in de oude biografie en hagiografie, La Haye 1962, p. 184 – 185.

DOELGER (F.-J.), "Das Anhängekreuzchen der hl. Makrina und ihr Ring mit der Kreuzpartikel. Ein Beitrag zur religiösen Volkskunde des 4. Jahrhunderts nach der Vita Macrinae des Gregor von Nyssa", Ant. u. Chr. 3 (1932), p. 81 – 116.

KESTUGIÈRE (A.-J.), "Vraisemblance psychologique et forme littéraire chez les Anciens", Philologus 102 (1958), p. 21 – 42.

KALSBACH (A.), "Vom Mensch-und Lebensideal der christlichen Antike. Gregors von Nyssa Vita S. Macrinae", in Das Bild vom Menschen, Düsseldorf 1934, p. 36 – 41.

MAROTTA (E.), "La base biblica della Vita S. Macrinae di Gregorio di Nissa", VetChrist 5 (1968), p. 73 – 88.

— "Similitudini ed ecphraseis nella Vita S. Macrinae di Gregorio di Nissa", VetChrist 7 (1970), p. 265 – 284.

VIZMANOS (F. de B.), Las virgines cristianas de la Iglesia primitiva. Estudio histórico-ideológico seguido de una antologia de tratados patristicos sobre la virginidad, Madrid 1949, p. 500 – 503 et 508 – 513.

فهرس

المطبعة البولسية
جونيه - لبنان

A. T. I. M. E.

رابطة الكليات والمعاهد اللاهوتية في الشرق الأوسط

المنتسبة إلى



مجلس كنائس الشرق الأوسط

المركز الرئيسي

ص. ب. ٥٣٧٦ بيروت – لبنان

هاتف: ٧٤٢٠٨٨ – ٣٥٣٩٣٨

تلكس: 22662 OIK LE

مكتب الاتصال

Box 4259 Limassol. Cyprus

فاكس: 344894

تلفاكس: 324496 – 05

